غزوة يهود خيبر

قدمنا أنه كانت بقرب المدينة جاليات من بنى إسرائيل هجروا مواطنهم تفاديا من الاضطهادات الدينية ، ونزلوا إلى صقع من الأرض بعيد عن المنازعات المذهبية ، ليعيشوا هانئين بملتهم . فلما أرسل النبى ﷺ داعياً للإسلام ، وناعياً عليهم وعلى جميع أهل الديانات انحرافهم عن الدين الحق ، كان وقع ذلك أشد على اليهود من وقعه على العرب أنفسهم ، لأن كتابهم صرح لهم فى آيات كثيرة منه بأن بنى إسرائيل سيكونون فى مستقبل الزمان حكام الأمم ، ومرشدى الشعوب القوية إلى الحق ، وأن الحرب ستبطل بين الشر ، وسينبث فيهم روح جديد من وجوب التآخى والتعاون وحسن الزمالة ، فيكون لهم دين واحد ، وإله واحد تحت زعامة بنى إسرائيل . ولكن لما كان عدد اليهود فى بلاد العرب لا يكفى لمكافحة الدين الناشىء فى بلاد العرب ، الذى يؤكد أنه المعنى بهذه البشارات ، نشطوا لتأليب الجاهليين عليه ، ومنوهم بالعون والتأييد ، وقاموا لهم بما تعهدوا به ، كما فعل بنو النضير وبنو قريظة ، وقد مر ذكرهم فيما سبق .

وكان يهود خيبر الذين نحن بصددهم أشد من جميع إخوانهم تهييجا على الإسلام ، فصمد إليهم [1] النبى ﷺ فى السنة السابعة من الهجرة . وخيبر تبعد عن المدينة نحو مائة وخمسين كيلو مترا إلى الشمال الغربى منها . وكان بنو إسرائيل اتخذوا فيها ثلاث مجموعات من الحصون ، وهى : حصون النَّطَاة ، وحصون الكَتِيبَة ، وحصون الشقّ ؛ المجموعة الأولى مؤلفة من ثلاث حصون ، والثانية من اثنين ، والثالثة من ثلاثة .

---

(١) صمده وصمد له وصمد إليه ، قصده ، ويظن قراء الصحف اليوم أن الصمود يعنى المقاومة وهو خطأ .

فلما كان المحرم من السنة السابعة للهجرة أمر النبى ﷺ بالصمود إلى يهود خيبر ، واستنفر ممن حوله من الأعراب ، الذين كانوا معه بالحديبية ؛ ولما اكتمل عدد الجيش ولى على المدينة أحد أصحابه ، وخرج قاصدا خيبر ؛ ولما وصل إليها ، رفع جنوده أصواتهم بالتكبير والدعاء ، فنهاهم ﷺ عن الصياح قائلا لهم : « ارفقوا بأنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم » .

هنا يجب أن ننبه أن من مميزات الإسلام أنه دين آداب عالية ، ووقار ومدنية ، مرماه إصلاح القلب وتطهير الباطن ، بعيدا عن الحماسة التظاهرية ، والتقاليد العامية ، حتى فى المواطن التى قد يسمح كبار القواد لجنودهم بشىء من الخروج عن النظام ، تشجيعا لهم على خوض غمرات المعارك الطاحنة . وهى مميزات لو قوبلت بما يفعله بعض المسلمين اليوم من التحلق للذكر وقوقا ، وعلى قارعات الطرق ، ومن سير مواكب دينية تحت الأعلام ، فى حالة تصايح وتجاوب بالأناشيد ، لأخذ الإنسان العجب من هذا الانحراف الذى ذهب بأصحابه إلى الضد من الآداب الإسلامية العالية .

نعود إلى متابعة السيرة فنقول : بدأ المسلمون بمحاصرة المجموعة الأولى من حصون خيبر وتسمى (النطاة) ، فعسكروا بعيدا عن مرمى النبل ، وأمر النبى ﷺ بقطع نخيلهم ليحملهم على التسليم ، فأتموا قطع أربعمائة نخلة ، ولما لم يحملهم ذلك على الخضوع وآثروا الدفاع ، منع رسول الله القطع ، وأمر بالحملة على الحصن الأول ، فبدأوها بالناضلة بالسهام ، ولبثوا على ذلك سبعة أيام لم ينالوا من عدوهم شيئا ، حتى كان ليل اليوم السابع ، فظفر حارس الجيش عمر بن الخطاب بيهودى خرج من الحصن متسلّلاً ، فأتى به إلى النبى ﷺ وقد تملكه الرعب ، فقال الأسير لمن حوله : إن أمنتمونى دللتكم على ما فيه نجاحكم . فأمنوه على نفسه . فقال : « إن أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب ، وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى حصون الشق (وهى المجموعة الثالثة) ، وسيخرجون لقتالكم غدا ، فإذا فتح عليكم

هذا الحصن غدا ، فإنى أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات [١] ، ودروع وسيوف ، يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون ، فإنكم تنصبون المنجنيق ، ويدخل الرجال تحت الدبابات فينقبون الحصن ، فتفتحه من يومك » .

فلما كان الغد أعطى النبى ﷺ الراية لعلى بن أبى طالب وأمره أن يقاتل الإسرائيليين ، فتوجه من فوره للقائهم ، ولما تراءى الفريقان ، بدأ القتال على عادتهم بالمبارزة الفردية ، فخرج من اليهود ثلاثة رجال متعاقبين ، فقتل على منهم اثنين ، وقتل الزبير بن العوام الثالث ، ثم حمل المسلمون على خصومهم حملة صادقة فأزاحوهم عن مواقعهم ، ثم تبعوهم حتى لجأوا إلى الحصن الثانى من مجموعة الحصون الأولى وكان اسمه (الصعب) ، ودخل المسلمون الحصن الأول فغنموا منه مقادير كبيرة من الخبز والتمر . ثم تابعوا مقاتلتهم فى الحصن الذى لجأوا إليه . فنافح عنه الإسرائيليون مستبسلين ، فارتد عنه المسلمون ، إلا الحباب بن المنذر وفرقة معه ، قاتلوا قتالا شديدا حتى هزموا أعداءهم واقتحموا عليهم الحصن ، فوجدوا فيه مقادير وافرة من الطعام وعلف الدواب . فاضطر اليهود إلى اللجوء إلى الحصن الثالث واسمه حصن قلة ، وتبعهم المسلمون إليه ، فاستصعب عليهم فحاصروه ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع دلهم يهودى على الجداول التى توصل الماء إلى ذلك الحصن ، فقطعوها عليهم ، فاضطروا للخروج والمكافحة دونها ، فلم يقووا على رد المسلمين ، وانهزموا إلى المجموعة الثالثة من الحصون وتدعى حصون الشق ، فتبعهم المسلمون إليها ، وقاتلوهم على أوها ، فخرج أهله وقاتلوا قتالا شديدا ، ولكن أبا دجانة الأنصارى تمكن وفرقة معه من اقتحام الحصن ، فوجد فيه المسلمون أثاثا كثيرا ومتاعا وغنما وطعاما ، وهرب المنهزمون منه إلى الحصن الذى يليه من تلك المجموعة فامتنعوا فيه ، وكان أهله أشد قومهم مناضلة بالسهام ، ورجما بالحجارة ، حتى أن رسول الله ﷺ أصابه بعض ذلك .

---

(١) هى آلة كان المقاتلون القدماء يتخذونها لنقب أسوار المدن والحصون المنيعة ، وهى عربة مغطاة يدخل فى جوفها الرجال ، ثم تدفع إلى جدران الحصون فيعملون على نقبها آمنين .

فاضطر المسلمون عند ذلك إلى نصب المنجنيق الذى غنموه من اليهود ، فوقع فى قلوب مقاتلتهم الرعب ، وهربوا منه من غير كبير عناء .

ثم تتبع المسلمون خصومهم إلى المجموعة الثالثة من الحصون ، وتدعى حصون الكتيبة ، وبدأوا بأولها فحاصروه عشرين ليلة ، ثم افتتحوه ، ومنه سبيت صفية بنت حيى بن أخطب ، سيد بنى النضير من القبائل اليهودية ، ثم سار المسلمون لحصار الحصنين الباقيين من تلك المجموعة ، فلم يقاوم أهلهما ، وسلموا طالبين حقن دمائهم ، والخروج من أرضهم بأهلهم وأولادهم ، غير آخذين من أمتعتهم إلا ثوبا على أجسادهم ؛ وغنم المسلمون من هذا الحصن أربعمائة سيف ، ومائة درع ، وألف رمح ، وخمسمائة قوس . وعثر المسلمون على حلى لحيى بن أخطب فيها أساور ودمالج وخلاخيل وأقرطة وخواتيم من الذهب ، وعقود من الأحجار الكريمة . فأمر النبى ﷺ بقتل كنانة بن أبى الحقيق لإنكاره وجود هذه الحلى . ووجدت صحف من التوراة فسلمت لأصحابها .

ولما عاد المسلمون من هذه الغزوة إلى المدينة ، قدم من الحبشة المهاجرون الذين بقوا فى الحبشة تحت قيادة جعفر بن أبى طالب ، وكان فيهم أبو موسى الأشعرى وجماعة من قومه ، بعد أن أقاموا فى بلاد الحبشة عشر سنين .

الاستيلاء على فَدَك وصلح تَيْماء :

بعد رجوع النبى ﷺ المدينة أرسل رسولا يطلب من يهود فَدَك الانقياد والطاعة . وفدك هذا حصن قريب من خيبر على بعد ست ليال من المدينة ، فصالحوه على أن يحقن دماءهم وأن يتجردوا هم من أموالهم .

ولما نمى إلى يهود تيماء ، وهى قرية على ثمان مراحل من المدينة ، ما حل بيهود خيبر ، صالحوا النبى ﷺ على دفع الجزية ، ومكثوا فى بلادهم لم يزعجهم فيها أحد .

فتح وادى القرى :

بعد أن تمت للنبى ﷺ كل هذه الفتوح ، أرسل إلى يهود وادى القرى يطلب إليهم الانقياد والطاعة ، فأبوا القتال ، فقاتلهم المسلمون ، وهزموهم ، وحصلوا منهم على مغانم كثيرة ، وترك رسول الله الأرض فى أيدى أهلها ليزرعوها على شطر مما يخرج منها .

أربع سرايا :

فى هذه السنة وهى السابعة من الهجرة ، بلغ النبى ﷺ أن رجالا من بنى هوازن يتصدون للمسلمين ، فأرسل إليهم ثلاثين رجلا تحت قيادة عمر بن الخطاب ، فلما علم المشركون بذلك لاذوا الفرار .

ثم أرسل فصيلة من الجنود تحت قيادة بشير بن سعد الأنصارى لقتال بنى مرة بجوار فدك ، فلما وصلوا إلى محلتهم لم يجدوا أحدا فاستاقوا ماشيتهم ، وبلغ القوم ما حدث ، وكانوا فى الوادى فتعقبوا هذه الفصيلة حتى أدركوها ليلا وهى راجعة إلى مكة بما غنمت ، فتراموا بالنبل ، ولما تنفس الصباح اقتتل الفريقان قتالا مرا حتى قتل أكثر رجال الفصيلة ، وجرح قائدهم بشير بن سعد جرحا بليغا ، فتحامل حتى أتى إلى رسول الله فأخبره بما تم .

وأرسل رسول الله فصيلة من الجند إلى أهل الميفعة وهى بناحية نجد ، تحت قيادة غالب بن عبيد الله الليثى ، فقاتلوا القوم قتالا شديدا .

وفى هذه الوقعة تصدى أسامة بن زيد لرجل من المشركين فلما تمكن منه ، وأدرك الرجل أنه هالك لا محالة ، لجأ إلى ما ظنه أنه يدرأ عنه السيف ، وهو أن يقول لا إله إلا الله ، فأدرك أسامة أن الرجل لم يقل ذلك إلا تخلصا من القتل ، فلم يعبأ بما قال وقتله .

فلما رجعت هذه الفصيلة إلى المدينة ، وأخبر رجالها رسول الله بما حدث

من أسامة بن زيد ، استقدمه إليه وقال له : أتقتله بعد أن قال لا إله إلا الله ، فكيف بلا إله إلا الله ؟

قال أسامة : يا رسول الله إنما قالها متعوذا من القتل .

فقال له ﷺ : فهلّا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

قال أسامة : يا رسول الله استغفر لى .

قال عليه السلام : فكيف بلا إله إلا الله ، وما زال يكررها حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم قبل ذلك اليوم ، ونزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً ، تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

ثم أمر رسول الله أسامة أن يعتق رقبة ، كفارة لما فعل .

هنا لا نستطيع أن ندع هذا الحادث الصغير فى ذاته ، الجليل فى مؤداه وأثره ، بدون تعليق ، لأنه يدل على الروح السلمية التى كانت تتولى المسلمين فى مجاهدتهم للمشركين . وهو يدل دلالة قاطعة على أن الجهاد فى الإسلام لم يشرع تحت إملاء عاطفة وحشية ، كالتى تتسلط على طلاب المغانم بواسطة الغارات ، ولا على محبى التبسط فى الملك دون مراعاة مبدأ إنسانى يراد من ورائه إحداث إصلاح عام للبشر . بل شرع تحت سلطان روح علوية مصاحبة لشعور سام بالحقوق الطبيعية لكل فرد من بنى الإنسان ، ولكل جماعة من جماعاته ، ولولا أن الانتقالات الأدبية والاجتماعية لا تتم إلا على هذا النحو من التدافع والتناحر ، وفقا للسنة الطبيعية التى تشاهد فى جميع أدوار التاريخ ، وفى كل عهود التطورات الإنسانية ، لسبق الإسلام كل داع للسلام فى الأرض . ناهيك أنه احتاط لعهد استقرار السلام العام حين يتقرر بين الأمم ، بمبدأ لا يجوز أن يغفله المتكلمون فى هذه الناحية من الشئون الاجتماعية ، ألا وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ (٢) ،

---

(١) سورة النساء ، من الآية (٩٤) .

(٢) سورة الأنفال ، من الآية (٦١) .

وبناء على هذا الأساس ، فإن الدعوة العامة التى ستتلو هذه الحرب العالمية المستعرة ، سيكون الغرض منها إبطال الحرب ، عند ذاك يجد المسلمون أنفسهم فى بحبوحة من الأمر ، بل يجدون ما يفخرون به أمام الأمم ، حين يفضون إليهم بأن دينهم قد توقع حدوث هذه الدعوة قبل وقوعها بنحو أربعة عشر قرنا . وفى هذا أكبر داحض لادعاءات خصوم الإسلام بأنه دين تناحر وعدوان ، لا دين أخوة وسلام .

نعود إلى سرد الحوادث التاريخية فنقول :

وبلغ النبى ﷺ أن طاغية من طواغى الجاهلية يدعى عُيَيْنة بن حصن ، تمالأ مع جماعة من بنى غطفان كانوا يقيمون قريبا من أرض خيبر ، للإغارة على المدينة ، فأرسل إليهم فصيلة عسكرية مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل تحت قيادة بشير بن سعد الأنصارى ، فلما وصلوا إلى محلتهم استاقوا ماشيتهم ، ولما بلغ الغطفانيين الخبر لحقوا بعليا بلادهم إلا اثنين منهما سلما ، وعاد المسلمون بغنائمهم إلى المدينة (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الثالث ، ربيع الأول سنة ١٣٦٢ هـ .

عمرة القضاء وخمس سرايا وغزوة مؤتة

يذكر قارئو هذه السيرة أن النبى ﷺ قصد فى السنة السادسة من الهجرة إلى مكة على رأس ألف وخمسمائه من أصحابه قاصدين العمرة ، وهى الطواف بالبيت ، وكانت فى غير وقت الحج ، فمنعته قريش من الدخول وآثرت أن تدخل معه فى حرب على أن تسمح له بغشيان مدينتها وهى فيها . ولما لم يكن قصد النبى أن يخرج للحرب ، ولم يأخذ لها عدتها ، رأى أن يفاوض قريشا فى الأمر ، فترددت بينها وبينه السفارات ، حتى استقر الرأى على أن يرجع النبى ﷺ وصحبه عامهم ذلك ، ويعودوا فيما يليه ويدخلوا مكة معتمرين ؛ ويذكر قراؤنا أننا قلنا إن هذا الاتفاق لم يرض أحدا من المسلمين ، وقبلوه طاعة للرسول إلا أبا بكر ، وقلنا إنه كان من أثره أن دخل فى الإسلام رجالات من قريش بدون قتال ، كان فى مثولهم فى حظيرته قوة له ، وعلو لكلمته ، لأن فى الدخول فيه طواعية ، وخاصة من آحاد يعتبرون قادة للجاهليين ، معنى أرقى من دخولهم فيه كرها ، وهذه الحكمة تجلت للصحابة ، فاعتبروا صلح الحديبية الذى كانوا أنفوا منه ، أحفل صلح بالنتائج العظيمة ، والثمرات الطيبة .

لما حال الحول على ذلك الصلح ، خرج النبى ﷺ ومن كانوا معه فى العام السابق ، قاصدين مكة لقضاء العمرة التى صُدّوا عنها عام أول ، واستخلف على المدينة أباذَرٍّ الغِفَارِىّ . ولكنهم فى هذه الدفعة أخذوا أهبتهم للحرب خشية أن يبدو من قريش إخلاف للعهد . وكان عدد خيالته مائة تحت قيادة بشير بن سعد . وبدأ ﷺ بالإحرام للعمرة من باب مسجده بالمدينة .

ولما انتهى إلى موضع ذى الحليفة قدم الخيالة أمامه . فقيل له يا رسول الله تحمل السلاح وقد شرطوا عليك أن لا تحمله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « لا ندخل الحرم به ، ولكن يكون قريبا منه ، فإن هاجنا هائج فزعنا له » .

فلما وصل إلى مكان يدعى مَرَّ الظَّهْران ، قابله رجال من قريش ، ففزعوا

مما رأوا من استعداد المسلمين للقتال ، وأسرعوا إلى قومهم فأخبروهم بما رأوا ، وجاءه نفر منهم وسألوه عما يقصده من هذه المظاهر الحربية ، فأجابهم بقوله : « إننا لا ندخل الحرم بالسلاح » .

ولما حان وقت دخول مكة ، خرج منها أهلوها ، كراهة منهم أن يروا المسلمين يطوفون بالبيت ، فدخل النبى ﷺ وصحبه متوشحين بسيوفهم من ناحية يقال لها ثنيّة كداء ، أمامه عبد الله بن رواحة وهو يقول : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ؛ وطاف رسول الله بالبيت ، واستلم الحجر الأسود بمِحجنه (المحجن هى العصا المنعطفة الرأس) وأمر أصحابه أن يطوفوا ثلاثة أشواط مسرعين ، إظهارا للقوة ، لأنه بلغه أن المشركين قالوا : سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حمى يثرب ، أى المدينة ، فقال ﷺ : رحم الله امرءاً أراهم من نفسه قوة . واضطبع بردائه (أى أدخل رداءه تحت إبطه الأيمن وغطى به الأيسر) وكشف عضده اليمنى ، شأن أهل الفتوة ، وفعل مثله المسلمون .

هذه هى عمرة القضاء ، وإنما سميت بهذا الاسم لأنها لم تعمل فى وقتها حين أرادوها فى العام الماضى ، فصارت قضاء .

* * *

وفى صفر من هذه السنة ، وهى الثامنة من الهجرة ، أرسل النبى ﷺ غالب ابن عبد الله الليثى إلى بنى الملوح ، وهم يسكنون بالكَدِيد ، وهو بين عسفان وقُدَيْد من بلاد العرب بقرب المدينة ، فسارت هذه الفصيلة من الجند حتى إذا كانت بقديد التقت بالحارث بن مالك الليثى المعروف بابن البرصاء ، وكان من أشد خصوم الإسلام والمسلمين ، فأسروه . فقال لهم : إنى ما جئت إلا لأدخل فى الإسلام . فقالوا له : إن جئت لهذا القصد فلا يضرك وثاق ليلة . ثم صاروا حتى وصلوا إلى محلة بنى الملوّح فاستاقوا الغنم والشاء ، وانطلق صريخهم مسرعا وأخبر القوم بما حدث . فأقبل عليهم من رجالهم عدد لا قبل للمسلمين بدفعه ، وكادوا يلحقون بهم ويقاتلونهم ، لولا أن اتفق حدوث سيل شديد حال بينهم وبين أعدائهم ، واستمر

المسلمون يستاقون غنيمتهم ، وأصحابها ينظرون إليهم ، ولا يستطيعون أن يصلوا إليهم ليستردوها منهم .

ولما عاد غالب بن عبد الله الليثى إلى المدينة ومعه الغنيمة ، أرسله رسول الله ليقتص من بنى مرّة بفدك ، وهم الذين اجتاحوا سرية بشير بن سعد التى ألممنا بذكرها هنا . فانطلق على رأس مائتى رجل حتى إذا كان قريبا من القوم الذين صمد لهم (أى قصد إليهم) ، جمع جنوده وخطبهم قائلا بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له ، وأن تطيعونى ولا تخالفوا لى أمرا ، فإنه لا رأى لمن لا يطاع » ، ثم آخى بين كل اثنين من جنوده ، وأمر كل متآخيين أن لا يفارق زميله ، وحذرهم أن يرجع الواحد منهما فإذا سئل أين صاحبه قال لا أدرى ، ثم أمرهم إذا كبر أن يكبروا بعده .

هذا أسلوب جديد فى الحرب لم يؤثر عن غير غالب بن عبد الله ، وهو إجراء لا شك فى أنه رآه أفعل فى تماسك أصحابه فى تلك الحالة التى وجد فيها ، وكثيرا ما يروى عن القواد المحنكين ابتكارات تمليها الحاجة الوقتية ، وتعود بأجزل الفوائد على الآخذين بها ، وخاصة إذا كانوا فى حالات يكون المقاتلون فيها بحاجة إلى وسائل جديدة .

ثم أخذ غالب يفرق جنوده ويعين لهم مواقف بحيث يصيرون محيطين بعدوهم ، حتى لا يفلت منهم أحد .

لما تمت هذه الاستراتيجية أى التعبئة ، رفع غالب صوته بالتكبير ، وكبر بعده جنوده وجردوا سيوفهم وحملوا جميعا على أعدائهم فى وقت واحد فأتوا عليهم ، لم يفلت منهم أحد ، واستاقوا ماشيتهم كلها .

* * *

وفى ربيع الأول أرسل النبى ﷺ كعب بن عمير الغفارى إلى ذات أطْلاح من أرض الشام فى خمسة عشر رجلا ، فوجدوا جمعا كثيرا ، فدعوهم إلى الإسلام فأبوا ، وهجموا على المسلمين وهم فى قلة لا تغنى عن نفسها شيئا ، فدافعوا عن أنفسهم دفاعا شديدا حتى بادوا على بكرة أبيهم ، إلا رئيسهم كعب بن عمير ،

تمكن من العودة سليما وأخبر رسول الله بما حدث ، فهمّ أن يبعث إليهم بمن يقتص منهم ، فترامى إليه أن القوم تحولوا عن محلتهم ، فعدل عن ذلك .

غزوة مؤتة :

لما أرسل النبى ﷺ فى السنة السادسة من الهجرة رسلا من عنده إلى الملوك بكتب يدعوهم فيها إلى الإسلام ، كان منهم الحارث بن عمير الأزدى أرسله إلى أمير بُصْرى ، فلما بلغ مُؤْتة ، وهى قرية تابعة للبلقاء بالشام ، تعرض له شُرَحْبيل ابن عمرو الغسّانى ، فسأله أين يريد ؟ فأجابه الحارث : الشام . قال : لعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم . فأمر به فضربت عنقه . فلما بلغ رسول الله ما حدث ، أسف من ذلك أسفا شديدا ، فلما كانت السنة الثامنة من الهجرة جهز جيشا للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عمير هذا . وسلم قيادته إلى زيد بن حارثة ، وقال لهم إن أصيب زيد فاجعلوا بدله جعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب هو أيضا ، فأمّروا عليكم مكانه عبد الله بن رواحة . وكان عدد هذا الجيش ثلاثة آلاف رجل . فلما ساروا شيعهم النبى ﷺ وأوصاهم ، وكان مما قاله لهم : « اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ، ولا بصيرا فانيا ، ولا تقطعوا شجرا ، ولا تهدموا بناء » .

بعد أن تلقى أصحابه هذه التوصيات لم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى مؤتة ، وهى قرية قريبة من الكرك من مشارف الشام ، وهى الجهة التى قتل فيها الحارث ابن عمير مندوب رسول الله ﷺ ، وكان الرومان قد بلغهم خبر قدومهم فأعدوا لهم جيشا لجبا مؤلفا من مقاتلتهم المختارين ، تؤيدهم جماعة من العرب الذين دخلوا فى النصرانية لمجاورتهم لأهلها . فلما رأى المسلمون كثرة عدد أعدائهم أخذوا يتفاوضون فيما يفعلون ، أيقدمون على الحرب ، أم يتريثون ريثما يصلهم مدد من النبى ﷺ ؟ فاستقر رأيهم على مناجزة عدوهم ، فقاتلوهم قتالا شديدا ، حتى قتل قائدهم زيد بن حارثة ، فقام مقامه بناء على إشارة رسول الله جعفر بن أبى طالب ، واستمر جيش المسلمين يقاتل حتى قتل قائده المذكور ، فخلفه على القيادة عبد الله ابن رواحة ، فتقدم الصفوف ولم يزل يقاتل حتى قتل . واشتد الكرب على

المسلمين ، وحمى وطيس الكفاح ، وظهر التضعضع فى صفوفهم ، وهمت طائفة بالتقهقر ، فقال لهم عقبة بن عامر : « يا قوم يقتل الإنسان مقبلا خير من أن يقتل مدبرا » فأقبلوا مستبسلين ، ورأوا أن يؤمروا عليهم خالد بن الوليد وهو أشهر قواد العرب جاهلية وإسلاما، وكان لم يمض على إسلامه إلا سنة وبضعة أشهر ، وكان هذا الجيش فى حاجة إلى قائد خبر مآزم الحرب ، وتورط فى غمراتها ، لا لإحراز النصر على أعدائه فى تلك الملحمة التى لا تناسب فيها بين الخصمين من الناحية العددية ، ولكن لتخليص جيشه من التهلكة التى يتعرض لها ، وليس يخفى أن حماية الجيوش من المهالك التى تتعرض لها ، لا تقل استدعاء للحنكة الحربية ، والمهارة الفنية ، من إبلاغها إلى ذروة النصر ، بل ربما كانت الأولى أكثر استحقاقا لإطراء القائد الذى تتم على يده تلك الحماية ، من خصمه الذى انتصر عليه ، إذا كانت النسبة العددية بين الجيشين كبيرة ، وكان الجيش القليل عدده بعيدا عن مراكز تموينه ومصادر مدده . وأين حدود الشام من المدينة ، وماذا يغنى ثلاثة آلاف عن أنفسهم حيال أمة رمتهم بمائة وخمسين ألفا من جنودها المحنكين ، فضلا عن ألوف أخرى من العرب المتنصرة ؟ وماذا تكون الحالة المعنوية لجيش فقد ثلاثة قواده الواحد تلو الآخر ، ووجد نفسه بغير قائد يدبره ؟ لا جرم أن التصدى لتخليص هذا الجيش من التهلكة يعتبر من الأعمال التى تخلد لصاحبها فى تاريخ الحروب ذكرا .

تولى خالد بن الوليد قيادة هذا الجيش ، وجعل همه أن يدبر أمر قهقرته بأقل خسارة ممكنة ، أى بانتظام ، كما يقال فى العرف الحربى ، فقاتل يوم توليه قتالا عنيفا ، وفى غده جعل ساقته مقدمة وميمنته ميسرة ، إيهاما للرومان بأنه قد تلقى مددا ، وفى الوقت نفسه بنى أمره على التقهقر بانتظام ، واللجأ إلى ما يسمى فى العرف الحربى الراهن بحرب المؤخرة ، وما زال يقاتل وهو يتقهقر حتى انحاز إلى مؤتة ، وهى فى موقع يمكنه من الثبات قليلا ، وظل فيه سبعة أيام ، فلم ير الرومان أن يتبعوه إلى أبعد من هذا الموقع خشية أن يطول خط تموينهم ، فاكتفوا بدفعه إلى ذلك الحد ، وتركوه وشأنه ، وعادوا إلى بلادهم .

ولما عاد الجيش قابل الناس جنوده لائمين لهم ومرددين قولهم : يا فُرَّار . فقال النبى ﷺ : بل هم الكُرَّار وأفهمهم ما فعله خالد من مكايد الحرب ، وأثنى عليه

وأشاد بمهارته ، وحسن قيادته .

* * *

وفى شهر جمادى الآخرة بلغ النبى ﷺ أن رجالا من بنى قضاعة يتجمعون فى ديارهم وراء وادى القرى ليغيروا على المدينة ، فأرسل إليهم كتيبة من الجند مؤلفة من ثلاثمائة رجل من الأنصاروأمّر عليهم عمرو بن العاص ، ثم أمده بمائتين من المهاجرين فيهم أبو بكر وعُمَر ، فلحقوا عَمْراً قبل أن يصلوا إلى القوم .

لما وصلت هذه السرية إلى محلة القوم حملوا عليهم حملة صادقة ، فلم يمض غير قليل حتى ولى أعداؤهم منهزمين ، فاستاقوا ماشيتهم .

وفى رجب من هذه السنة كلف أبا عبيدة بن الجراح بغزو بنى جهينة التى تنزل ساحل البحر ، وجعل معه ثلاثمائة فارس . فلما وصلت هذه الكتيبة إلى محلة القوم وجدتهم غائبين عنها ، فمكثوا ينتظرون عودتهم نحو نصف شهر حتى نفد زادهم ، فاضطروا إلى التغذى بورق السَّمُر وهو ضرب من العِضاة ، والعضاة كل شجر يكبر وله شوك ، فاشترى لهم قيس بن سعد بن عبادة ثلاث جُزُر [1] أى إبل حصل عليها بدين على أبيه ، وأطعم رفاقه ، ثم أراد أن يزيد ، فنهاه أبو عبيدة خشية أن لا يفى له أبوه بما استدان . ولم ير فى زيادة المكث فائدة ، فعاد إلى المدينة .

* * *

لعل بعض الناظرين فى السيرة المحمدية يلاحظون أنه كما فيها شئون لا يمكن تعليها إلا بافتراض وجود تأييد إلهى عظيم لأحداث حصولها مناقضة للسنن الاجتماعية والنفسية المعروفة ، فيها شئون أخرى يبدو عليها طاقة القدرة الإنسانية ، ويجرى عليها ما يجرى على سائر الشئون البشرية من النجح أحيانا ، ومن القصور والضعف والخيبة أحيانا أخرى ، كما حدث لسرية بشير بن سعد الأنصارى التى قتل فيها أكثر جنودها ، وسرية كعب بن عمير الغفارى التى قتل جميع آحادها إلا قائدهم ، وغزوة مؤتة

---

(١) الجَزور الجمل يطلق على الذكر والأنثى جمعه جُزُر .

التى قتل فيها ثلاثة قواد وكان قصارى رابعهم أن عاد بمن بقى من الجيش دون أن يجنى أية فائدة ، وسرية أبى عبيدة عامر بن الجراح التى جاع فيها الجنود واضطروا لأكل ورق الشجر حتى تقرحت أشداقهم ، ولم يجدوا القوم الذين ذهبوا لقتالهم .

يلاحظ بعض الناظرين كل هذا ويقولون : أليس لو كان محمد نبيا لكان أُوحى إليه ما سيصيب أصحابه من هذه المحن فلا يعرضهم لها ، حتى لا تحدث اضطرابا فى جماعته ، أو شكا فى نبوته ؟ ونحن لدحض هذه الشبهة نقول :

أراد الله سبحانه أن يجعل للعالم كافة مثلا أعلى للدين ، فأوحى الإسلام ، وأراد أن يقيم له أمة تدين به وتنتدب لنشره ، فقضى أن تكون تلك الأمة ذات كيان عالمى لا تقوم على الجنسية ، والضرورات المادية ، على مثال سائر الأمم ، ولكن تتألف حول المبادئ الخلقية ، والأصول الحكمية ، فكانت هى الأمة الإسلامية . فأما الدين فقد تولى الله وحيه جملة وتفصيلا ، وأما الأمة فلا يمكن أن تجعل كل حركاتها وسكناتها صادرة عن الوحى ، لأن الوحى متى انقطع بوفاة النبى المرسل ، تجد الأمة نفسها قاصرة عن الاستقلال بنفسها ، لأنها لم تعتمد على قواها الذاتية قط ، ولم تكتسب بمجالدة الحوادث ، والوقوع فى المآزم ، ما يربى فى نفسها عناصر الرشد ، ويستكمل لها ميزات النضج ، لذلك ألقى الله حبلها على غاربها لتفتح لنفسها ، بمحض جهودها الذاتية ، وقواها المعنوية ، مكانا تحت الشمس .

ومن أصول علم التربية أن الطفل لكى يستكمل صفات الرجولة ، ويشب صالحا لمكافحة حوادث الحياة وجوائحها ، يجب أن لا يحاط ، بعد أن يشب ويترعرع ، بكثير من العناية ، خشية أن يصاب بجرح فى يده ، أو بشجة فى رأسه ، أو بكدمة فى جسمه ، ولكن يجب أن يعرض لذلك فى حد محدود ليتعود تحمل الآلام ، ومكابدة العوائق .

فكل ما تصادفه فى الناحية الاجتماعية من السيرة المحمدية أحيانا من الفشل فى المحاولات ، والخطأ فى التقدير ، والتعرض للهزائم ، يجب رده إلى الأصل الذى ذكرناه ، وهو لا يصح أن يكون مثار شبهة على النبوة ، ولا مصدر شك فى الرسالة ؛ ولو كان يصح لتأثر به قبل غيرهم أولئك الذين ابتُلوا به ، وكيف يتأثرون به ،

وقد أُخبروا به قبل أن يصيبهم ، قال الله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (أى لا يمتحنون) ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

فالذين دخلوا فى الإسلام فى أول عهده ، قبلوه على أنه دين تمحيص وابتلاء ، لإبلاغ إنسانيتهم إلى أوجها الأعلى من الكمال ، بتعريضهم لعوامل التطهير والاستصفاء ، وقد وفوا بعهدهم ، فاستحقوا أن يكونوا فى الرعيل الأول من خدام الإنسانية ، وكوفئوا بأن مكّن الله لهم ما لم يمكنه لغيرهم فى الأرض (*) .

* * *

(١) سورة العنكبوت ، الآيتان (٢ ، ٣) .

(٢) سورة البقرة ، الآيات (١٥٥ – ١٥٧) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الرابع ، شهر ربيع الثانى سنة ١٣٦٢ هـ .

فتح مكة

قصد إليها رسول الله على رأس عشرة آلاف مقاتل
وكانت مقاومة المشركين عنها أشبه بالتسليم

كان يخيل لقارئ السيرة المحمدية أنه سيقرأ فى هذا الفصل أخبار صراع بين الإسلام والوثنية يشيب لهولها الولدان ، ناهيك أنها بيئة قريش التى تولت زعامة المقاومة للإسلام من يوم ظهوره ، وأن فى احتلال المسلمين لها ضياعا لجميع امتيازاتها التاريخية فى سدانة البيت ، وما يتصل بها من المهام الدينية ، فيدهش القارئ حين يرى أن فتح مكة لم يكلف المسلمين أكثر من قتيلين ، ولم يبذل الجاهليون فى سبيل الدفاع عنها أكثر من دماء ثمانية وعشرين رجلا ، وليسوا من قريش ، بل من بنى الحارث وبنى بكر وبنى هذيل كانت استنصرت قريش بهم !

هذه ظاهرة لا يدهش منها إلا الذين ليس لهم نصيب من العلم بتحليل الحوادث الاجتماعية ، ومعرفة العوامل التى توجد المناعة فيها ، والتى تهيئها للانحلال والخذلان . ونحن نسرد للقارئين جملة هذه العوامل ، ليتبينوا أن ما حدث كان منتظرا ، وأن أكبر قوة فى الأرض ما كانت لتحمى قريشا من المصير الذى آلت إليه :

(أولها) ضعف العاطفة الدينية عند العرب ، فإنهم ما كانوا فى عهد من عهودهم على شىء كبير منها . ناهيك أنه لم يكن لهم كتاب يقدسونه كما لجميع أهل الملل ، ولم يكن لهم حفَظة للدين ، فلذلك كانت وثنيتهم مزيجا غير متجانس من أوهام ساذجة ، وكان لكل قبيلة أصنام خاصة لا يمت بعضها إلى بعض بصلة ، كأصنام المصريين واليونانيين والرومانيين القدماء ؛ والشىء الوحيد الذى كان يجمع بينهم هو حج البيت ، وكان لا يهمهم أمره إلى حد الدفاع عنه ، بدليل أن أبرهة عندما اعتزم هدم الكعبة ، اخترق بجنوده بلاد العرب حتى وصل إلى مكة ، وما كان من أهلها إلا أن تركوها شاغرة واعتصموا بالجبال ، هربا من بطشه ، والذى يترك البيت لأجنبى يهدمه ، يهون عليه أن يتركه لعربى يحفظه ويعظمه .

(ثانيا) تفكك الرابطة الاجتماعية . وأنَّى لهم ذلك وهم قبائل متفرقة ،

وفى حالة تنازع وتناحر دائمين ؛ فالقبيلة إن اجتمعت كلمتها للدفاع ، فلا يكون ذلك إلا ذيادا عن الأرض التى تمدها بالقوت ، و لم يكن معوّل قبائل العرب على الزراعة لقحولة أرضهم ، فإذا استطاعوا إجلاء ماشيتهم التى عليها مدار معيشتهم ، هانت عليهم محلتهم ، وانتقلوا إلى محلة أخرى من بلادهم .

(ثالثا) إثخان النبى ﷺ فى القبائل اليهودية ، كبنى قريظة والنضير وأهل خيبر ، وإجلاؤها عن أرضها ، وإدخال من بقى منها فى طاعته ، وقد كان رجالانها يرحلون إلى مكة ويحرضون قريشا على قتال النبى ﷺ ، ويطوفون على أحياء القبائل فيجمعون كلمتها على حرب المسلمين ، فلما بطل كل ذلك بطلت العوامل المحركة لقريش على المقاومة ، فلانت شكيمتها صاغرة .

(رابعا) إسلام كبار قادة الحرب فيها كخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وأبى سفيان بن حرب ، وكان دخولهم فى الإسلام طواعية من أشد المثبطات لها عن المقاومة .

وقد تبين أن صلح الحديبية ، وهو الصلح الذى عقد بين قريش ورسول الله ﷺ ، عقب منعه عن العمرة ، رغما عما ثار حوله من سخط الكثيرين عليه ، كان له أثر كبير فى تفهم كثير من عقلاء القرشيين للإسلام ، ومبادلتهم الرأى لأمثالهم الذين سبقوهم إليه ، فدخل منهم فيه عدد يذكر . وهذا الأمر كان له أثر كبير فى كسر شِرّة المحافظين على الوثنية .

(خامسها) ضخامة القوة التى صمد بها النبى ﷺ إلى قريش [1] . وهى عشرة آلاف مقاتل ، ولا تستطيع هى تجريد أكثر من خمس هذه القوة إذا استطاعت أن تستثير معها أحلافها من القبائل المجاورة .

والقول بأن قريشا كان يمكنها إهاجة قبائل من غير أحلافها ، مثل هوازن وغيرها ، بعيد عن التحقيق ، لأن هذه القبائل ما كانت لتتآزر لأغراض دينية ،

---

(١) صمد إليه معناه قصد إليه . وبعض الجرائد تستعمله بمعنى قاومه وهو خطأ .

ولو كانت تفعل ذلك لأمكن قريشا ، بمؤازرة خطباء بنى إسرائيل ، أن تسوق على المسلمين عشرات كثيرة من الألوف للقضاء على جماعتهم فى المدينة ، وهذا ما لم يحصل حتى بعد ما تجلى لتلك القبائل أن أمر المسلمين آخذ فى التضخم ، بما يدوخونه من القبائل التى حولهم .

نعم إن بنى هوازن جردت على المسلمين بعد فتح مكة ثلاثين ألفا من رجالها وهى من أكبر قبائل العرب ، ولكن لم يكن ذلك لإنقاذ الأصنام ، أو البيت الحرام من أيدى المسلمين ، ولكن لخشيتهم أن النبى ﷺ بعد ما استتب له الأمر فى مكة ، وامتد سلطانه إليها ، يعود فيحاول غزوهم فى ديارهم ، فأرادوا بما فعلوا أن يدفعوا هذا الخطر عنهم .

هذه هى العوامل التى قضت على قريش بأن تقبل إعطاء الدنِيَّة ، وأن تستسلم للمسلمين على الوجه الشائن ، وهو مصداق لقوله تعالى فى أول عهد الدعوة الإسلامية : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ، سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ (١) .

تاريخ هذا الفتح :

يعرف قراء هذه السيرة أنه لما اتفق النبى ﷺ وقريشا على أن لا يعتمر فى عامه الذى شخص فيه إلى مكة ، وأن يعود فيما يليه ، وسُمى هذا الاتفاق بصلح الحديبية ، وشُرط فيه أن لا يقاتل أحد الفريقين الآخر مدة أربع سنين ، وكان ذلك فى السنة السادسة من الهجرة ، حدث فى السنة الثامنة ما أوجب نقض هذه المعاهدة ، وإعلان الحرب على قريش .

ذلك أن بنى خزاعة التى كانت نازلة بجوار مكة ، كانت قد دخلت فى عهد النبى ﷺ ، ودخلت جارتها بنو بكر فى عهد قريش ، وكان بين هاتين القبيلتين ثارات بقيت متأججة فى صدريهما إلى ما بعد ظهور الإسلام .

---

(١) سورة القمر ، الآيات (٤٤ – ٤٦) .

فلما وقع صلح الحديبية بين المسلمين وقريش ، وقف رجل من بنى بكر يهجو رسول الله على مسمع من رجل من بنى خزاعة ، فنهض هذا وضربه ، فهبَّت بنو بكر للثأر من بنى خزاعة ، وأجمعوا أمرهم على حربهم ، وأعانهم بنو قريش سرًّا ، وأمدّوهم بالرجال والعتاد خفية ، وقتلوا من بنى خزاعة أكثر من عشرين رجلا . فما كان من أمر هذه القبيلة الأخيرة إلا أن أرسلت وفدا إلى النبى ﷺ تخبره بما حدث من بكر وقريش .

وأما قريش فإنها لما تحققت أن ما حدث يعتبر نقضا لمعاهدة الصلح ، أرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليجدد العقد ويزيد فى مدته . فقصد إلى مسجد النبى ﷺ وأدى إليه ما ندبته قريش له ، وهو لا يعلم أن وفد خزاعة سبقه وأخبر الرسول بما كان . فسأل ﷺ أبا سفيان : هل حدث شىء يقتضى حضوره ؟ فأجابه نفيا . فقال له رسول الله : إذن فنحن على مدتنا وصلحنا ، ولم يزد . فأدرك أبو سفيان أنه لم ينجح ، فقصد إلى رجالات المسلمين من قريش ، ورجاهم أن يتوسلوا له إلى رسول الله فى قضاء ما ندب له ، فلم يلبه منهم أحد ، فرجع إلى مكة .

أما رسول الله فإنه أمر بتعبئة الجيش ، واستنفر الأعراب النازلين حول المدينة ، ولم يخبر أحدا بما عزم عليه . ولكن أحد أصحابه واسمه حاطب بن أبى بلتعة كان له أقارب بمكة ، فأراد أن يتخذ عند قريش يدا ليدفع عنهم أذاهم ، فكتب إلى قريش يخبرهم بحركات النبى ﷺ ، وأرسل كتابه مع جارية ، فعثر عليها المسلمون فى روضة خاخ ، ووجدوا معها كتابا فأخذوه منها وأحضروه إلى النبى . ولما قُرئ له وعَرف ما فيه ، استدعى كاتبه ، وكان ممن شهد بدرا ، وهى أشهر المواقف الإسلامية . فسأله رسول الله عن السبب الذى دعاه لما فعل ؟ فأجابه : بأنه لم يفعل ذلك كفرا ولا غدرا ، ولكن ليتخذ عند قريش صنيعة يحترمون بسببها أهله . فقال رسول الله : أما إنه قد صدقكم ، وعفا عنه .

ثم سار النبى ﷺ على رأس عشرة آلاف مقاتل فى منتصف رمضان ، فلما وصل إلى الأبواء لقيه رجلان كانا من أشد أعدائه ، هما ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وصهره عبد الله بن أبى أمية شقيق زوجته أم سلمة ، وكانا يريدان الإسلام ، ففرح النبى بهما وقبلهما . ثم ما لبث أن قابل عمه العباس وأهله قاصدين المدينة ، فدعاه ليصحبه إلى مكة ، وأمر بأهله فرُحلوا إلى المدينة .

ولما بلغ مرّ الظَّهْران ، وكان بلغ قريشا أن النبى ﷺ زاحف فى خميس عرمرم لا تُدرى وجهته ، أرسلت أبا سفيان بن حرب وبُدَيْل بن ورقاء وحكيم بن حزام يلتمسون لهم الخبر ، فلما بلغوا مرّ الظهران عثر بهم جنود من المسلمين فاقتادوهم إلى النبى ﷺ ، فلما رأى أبو سفيان كثرة عدد المسلمين ، وعظيم تأهبهم ، لان قلبه للإسلام فأسلم .

ولما شارف المسلمون مكة ، جعل النبى ﷺ جيشه قسمين ، ولى أحدهما خالد بن الوليد وأمره أن يدخلها من كُدَى وهو جبل بأسفل مكة على طريق اليمن ، ودخل هو ﷺ من كَدَاء وهو جبل بأعلى مكة .

فأما خالد فقد قابله رجال من أحلاف قريش وأرادوا منعه ، فحدثت بين الفريقين معركة قتل فيها من المسلمين رجلان ، ومن المشركين ثمانية وعشرون ، وداخلهم الرعب فانهزموا .

وأما النبى ﷺ فلم يجد معارضا . وكان راكبا راحلته منحنيا على رحلها تواضعا لله ، حتى تكاد جبهته تمسه ، وجاعلا أسامة بن زيد رديفا له ، زيادة فى التواضع ، وكان ذلك فى صبيحة يوم الجمعة لعشرين خلت من شهر رمضان ، وما زال سائرا حتى وصل إلى الحَجُون ، وقد نصبت له هنالك قبة كان فيها أم سلمة وميمونة زوجتاه ، فاستراح قليلا ، ثم سار وإلى جانبه أبو بكر ، وهو يقرأ سورة الفتح ، حتى وصل إلى البيت الحرام ، فطاف به سبعا واستلم الحجر الأسود بمحجته ، وكان داخل البيت ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل عليه الصلاة والسلام يطعنها بعود فى يده وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، وما يبدئ الباطل وما يعيد » ، ثم أمر بها فأخرجت من البيت ، وفيها صورة إسماعيل وإبراهيم وفى أيديهما الأزلام ، وهى سهام صغيرة كانوا يلقونها ويَسْتَقْسِمون بها ، أى يعرفون ما قسم لهم مما لم يقسم بوقوعها على وجه منها أو على آخر ، فقال عليه الصلاة والسلام : قاتلهم الله لقد علموا أنهما ما استقسما بها قطّ !

ثم دخل رسول الله الكعبة وكبر فى نواحيها ، ثم خرج إلى مقام إبراهيم وصلى فيه ثم شرب من زمزم ، وجلس فى المسجد والناس حوله ، والعيون شاخصة إليه

ينتظرون ما هو فاعل بمشركى قريش ، وقد طالما آذوه واضطهدوه ، واضطروه هو وأصحابه للمهاجرة ، وقاتلوه أعنف قتال وأشنعه ، وخانوا عهده ، وحاربوا حلفاءه وأثخنوا فيهم .

فى هذا الموطن الذى فيه حُمَيّا الفوز تملأ الرءوس ، وغرائز الجبلة البشرية تشرئب إلى أعلى ما يمكن أن تصل إليه من الأنفة ، وأبهة الغلَب تفعم النفوس شعورا بالعزة ، تظهر المبادئ التى يقوم عليها المنتصرون فى أروع مظاهرها ، وتنم أفعالهم على حقيقة ما انطوت عليه جوانحهم من السمو الصحيح ، أو الرياء الدنىء لنشر الدعوة .

فماذا تظن أن النبى ﷺ فعل بخصومه وقد وقعوا تحت يده ؟ إنه عفا عنهم قائلا لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم نهض ﷺ وخطب الناس خطبة بين فيها كثيرا من الأحكام الشرعية . ثم التفت إليهم وقرر لهم الأصل الأصيل الذى أقام عليه الإسلام صرح أمة عالمية ، لا تمت إلى الروابط الجنسية واللغوية بصلة ، أمة دينها الحق ، ودستورها العلم والعقل ، ورابطتها المساواة والعدل ، وسيرتها المدنية الفاضلة والنبل ، وهو قوله ﷺ : « يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، والناس من آدم وآدم من تراب . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [1] .

وماكاد يتم خطبته حتى أقبل سادات المشركين يبايعونه على الإسلام ، فكان ممن بايعه فى ذلك اليوم معاوية بن أبى سفيان ، وأبو قحافة والد أبى بكر .

وجاءه رجل يرتعد خوفا ، فقال له رسول الله : « هوِّنْ عليك فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية (١٣) .

هذه كلمة لو تأملها طالب الدليل القاطع على نبوته ، لكان له منها أقوى حجة ، تفوق فى سطوع دلالتها أعظم الخوارق للطبيعة ؛ لأن رجلا يبلغ إلى هذه الدرجة من السلطان على الأجساد والقلوب ، يجرد نفسه مختارا من أرفع لقب لا تتطاول إليه أرفع الرءوس ، لعلوه عن متناول أبعد المطامع ، وقد تيسر له سبيله إلى خد أن كلمة منه كانت تكفى لحصوله عليه ، إن رجلا يبلغ إلى هذا الحد من التجرد عن الدنيا ، لهو رجل لا يوفيه حقه أى وصف غير وصفه بالنبوة .

وقد أهدر النبى ﷺ دماء رجال امتازوا بفظاعة عداوتهم له وللمسلمين ، فهربوا من وجهه ، فقُتل بعضهم وأسلم بعضهم ، منهم عبد الله بن أبى سَرْح لجأ إلى عثمان بن عفان وطلب إليه أن يستأمن له رسول الله ﷺ ، فأعرض عنه مرارا ثم بايعه . ومنه عكرمة بن أبى جهل فإنه فر ، وكانت امرأته قد أسلمت قبل الفتح ، فأخذت له أمانا من رسول الله ، ولحقت به واستقدمته فأسلم ، وكانت له مواقف فى الإسلام محمودة .

ومنهم هَبَّار بن الأسود ، وقد استتر حتى إذا كان رسول الله بالجِعِرَّانة ، وهى موضع بين مكة والطائف ، جاءه مسلما وقال له : يا رسول الله هربت منك ، وأردت اللحاق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمن جهل عليك ، وكنا يا رسول الله أهل شرك ، فهدانا الله بك وأنقذنا من الهلكة ، فاصفح الصفح الجميل . فقال له النبى : قد عفوت عنك .

ومنه الحارث بن هشام وزهير بن أبى أمية ، وقد أجارتهما أم هانىء بنت أبى طالب ، فأجاز عليه السلام جوارها .

ومنهم صفوان بن أمية فإنه ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فذهب ليلقى بنفسه فى البحر ، فجاء ابن عِمه عمير بن وهب وقال : يا نبى الله إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد هرب ليلقى بنفسه فى البحر ، فأمِّنْه فإنك قد أمّنت الأحمر والأسود . فقال له ﷺ : أدرك ابن عمك فهو آمن . فقال عمير : فأعطنى يا رسول الله علامة . فأعطاه النبى عمامته . فأخذها عمير حتى إذا لقى صفوان ، قال له : فداك أبى وأمى قد جئتك من عند أفضل الناس ، وأبر الناس ، وأحلم الناس ، وخير

الناس ، وهو ابن عمك ، وعزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك . قال صفوان : إنى أخافه على نفسى . قال عمير : هو أحلم من ذلك وأكرم ، وأراه العمامة علامة الأمان . فرجع إلى رسول الله وقال له : إن هذا يزعم أنك أمنتنى . قال : صدق . قال صفوان : فأمهلنى بالخيار شهرين . قال له النبى : بل أربعة أشهر . ثم أسلم وحسن إسلامه .

ومنهم هند بنت عتبة فاختفت ، ثم جاءت وأسلمت ، فقبل النبى ﷺ إسلامها .

وأما كعب بن زهير بن أبى سلمى ، فلما ضاقت عليه المنادح ، ولم يجد بدا من التسليم ، جاء المدينة وأسلم ، وأنشد رسول الله قصيدة يمدحه بها ، أولها :

بانت سعاد فقلبى اليوم مَتْبُولُ متيَّمٌ إثْرها ، لم يُفْدَ ، مغلولُ

ثم مضى فيها يصف ما لاقاه من الشدائد فى اختفائه :

وقال كل صديق كنت آمله لا ألهينَّك إنى عنك مشغول
فقلت خلو سبيلى لا أبَا لكم فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول
أنبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل

فلما انتهى إلى قوله :

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

خلع رسول الله بردته وأعطاه إياها إعجابا بشعره .

ومنهم وحشى قاتل حمزة عم النبى ، وقد جاء إلى رسول الله مسلما ، فقبل إسلامه .

ومنهم ابنا أبى لهب عتبة ومعتب ، فإنهما قدما نفسيهما وأسلما ، فقبل النبى إسلامهما .

بيعة النساء :

لما تمت بيعة الرجال جاءه النساء فبايعنه على أن لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصين الرسول فى معروف .

هدم كبار الأصنام :

فى اليوم الخامس بعد الفتح أرسل النبى ﷺ خالد بن الوليد فى ثلاثين رجلا ، وأمره بهدم هيكل أكبر صنم كان لقريش وهو العُزّى ، وكان هيكلها ببطن نخلة قريبا من مكة .

وأرسل عمرو بن العاص لهدم الصنم الكبير لبنى هذيل ، وكان هيكله على بعد ثلاثة أميال من مكة ، فذهب عمرو إليه وهدمه .

وبعث سعد بن زيد الأشل فى عشرين فارسا لهدم الصنم مناة وكانت لبنى كلب وخزاعة ، وكان هيكلها بالمشلّل ، وهو جبل على ساحل البحر الأحمر ، فذهبوا إليها وهدموها .

هذه حوادث كبر لم يُرَوَ مثلها لمصلح فى الأرض ، ولا لرسول قبل محمد ﷺ فمن شاء دليلا على نبوته فوق هذا ، فلا أدرى أى دليل يقتنع به بعده !

يحسن بنا أن نكرر هنا ما سبق لنا أن نوهنا به من قول الفيلسوف الانجليزى الكبير كارلايل فقد قال فى كتابه (الأبطال وديانة الأبطال) ما مؤداه :

« ماذا يطلب من رجل يدعى أنه بنّاء من دليل على دعواه ، أكبر من أن يبنى بيتا يأوى إليه الناس . وقد جاء محمد فادعى أنه نبى ونشر دينا اتبعه مائتا مليون من النفوس ووجدوا فيه سعادتهم ، وبقى هذا الدين قائما أكثر من ألف ومئتى سنة ؛ فأى دليل يراد منه أن يقيمه على نبوته بعد هذا ؟ » (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الخامس ، جمادى الأولى سنة ١٣٦٢ هـ .

المعركة الفاصلة بين الوثنية والإسلام

فى بوادى العرب

غزوة حنين

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١).

غزوة حنين كانت بين بنى هَوَازِن وبنى ثَقِيف مجتمعين ، وبين المسلمين ؛ وحنين اسم موضع فى طريق الطائف ؛ وقيل إن حنينا اسم لما بين مكة والطائف ، وقد سميت هذه المعركة أيضا بوقعة أَوْطَاس ، وهو الموضع الذى وقعت به . وهوازن قبيلة كبيرة ذات بطون كثيرة كانت نازلة بين الطائف ومكة .

سبب هذه الغزوة أن النبى ﷺ لما فتح مكة ، ودانت له قريش ، خشيت هوازن وثقيف أن يغزوهما ويدخلهما فى طاعته ، فاجتمع قادة القبيلتين وتشاوروا فى الأمر ، واتفقوا على قتاله ، وقال قائل منهم ، « والله مالاقى محمدا قوم يحسنون القتال ، فأجْمِعوا أمركم ، وسيروا إليه قبل أن يسير إليكم » . وكان قائد هوازن مالك بن عوف ، وقائد ثقيف كنانة بن عبد ياليل ، وانضمت إليهما جموع غفيرة من قبائل شتى حتى بلغ مجموعهم ثلاثين ألف مقاتل ، أجمعوا على إعطاء القيادة لمالك بن عوف ، واشترطوا عليه أن يستشير دُرَيْد بن الصمّة ، وهو أعلاهم رأيا ، وأعرفهم بالحرب ، ولكنه كان قد أسن حتى بلغ العشرين بعد المائة ، وقيل أكثر من ذلك ، وكانت سن مالك بن عوف ثلاثين سنة . فسمع دريد رغاء الإبل ، وخوار البقر ، وبكاء الصغار ، فقال : مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ، وخوار

---

(١) سورة التوبة ، الآيات (٢٥ - ٢٧) .

البقر ؟ فأجابوه : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم . قال : أين هو ؟ فحضر بين يديه فقال له : يا مالك إنك تقاتل رجلا قد أوطأ العرب ، وخافته العجم ، وأجلى يهود . فقال مالك : لا نخالفك فى أمر تراه . فقال دريد : مالى أسمع هذه الضوضاء ؟ قال مالك : سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ليكون خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنهم . فقال دريد : هل يرد المنهزم شيء ؟ فإن كانت لك فذاك ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك .

فأبى مالك أن يطيعه ، وغضب دريد واعتزل الحرب .

ولما بلغ النبى ﷺ خروج هذه الجموع إليه ، نبذ إليهم على سواء ، وكان ذلك يوم السبت السادس من شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة ، فى جيش عدته اثنا عشر ألفا ، عشرة آلاف منهم كانوا جاءوا معه لفتح مكة ، وألفان من الذين أسلموا من قريش بعد الفتح ، وخرج معهم نساء كثيرات طماعية فى المغانم . ومما يجب لفت النظر إليه خروج ثمانين من المشركين لشد أزر المسلمين ، منهم صفوان ابن أمية وسهيل بن عمرو ، وكان ذلك منهم كراهية أن يتغلب الأعراب على قريش [١] ، وفى الأعراب جفوة وغَشْمرِيَّة ليست للعرب [٢] .

عبأ رسول الله جنوده فأعطى قيادة المهاجرين لعلى بن أبى طالب ، وقيادة بنى الأوس لأسيد بن حضير ، وقيادة الخزرج للحباب بن المنذر ، والأوس والخزرج أهل المدينة ويطلق عليهم الأنصار .

ولبس عليه الصلاة والسلام درعين وبيضة ومِغفرا [٣] .

لما سار الجيش ورأى المسلمون كثرتهم ، تداخلهم شيء من الزهو ، فقال رجال منهم : لن نهزم اليوم من قلة .

لما تمت تعبئة الجيش انحدر النبى بجنوده فى الوادى عند غبش الصبح ، وكان

---

(١) تطلق كلمة (عرب) على سكان الأمصار ، وكلمة (الأعراب) على سكان البوادى .
(٢) الجفوة الغلظ ، والغشمرية الظلم والكبر .
(٣) المغفر : ما يقى الرأس والعنق من الحديد والزرد .

رجال من هوازن قد كمنوا له فى بعض شعاب ذلك الوادى ومضايقه ، فلما حمل المسلمون على جيش العدو لم يلبثوا أن انهزموا ، قال البراء بن عازب : فأكببنا على الغنائم ، فخرج علينا من كانوا كامنين فى الشعاب والمضايق واستقبلونا بالسهام ، فولينا مدبرين لا يلوى أحد منا على أحد .

وقد بلغ بعض المنهزمين فى تقهقرهم مكة ، وأخبروا أهلها ففرحوا ، وكانوا لا يزالون على شركهم ، فكان ذلك مدعاة لظهور ما أكنه الناس فى قلوبهم ؛ فقال بعضهم انتهى أمر الإسلام وغدا يرجع العرب إلى دينهم الأول ، فإن هذه الهزيمة لا تقف دون البحر . وقال هشام بن كلدة وكان أخا لصفوان بن أمية لأمه : بطل سحر محمد ، فقال له أخوه صفوان ولم يكن قد أسلم بعد : أسكت فضّ الله فاك ، فوالله لأن يربُّنى (أى يملكنى) رجل من قريش أحب إلىّ من أن يربنى رجل من هوازن . ومر بصفوان هذا رجل فقال له أبشر بهزيمة محمد وأصحابه ، فوالله لا يجبرونها أبدا ، فغضب صفوان وقال : « أتبشرنى بظهور الأعراب ؟ فوالله لرب من قريش (أى ملك من قريش) أحب إلىّ من رجل من الأعراب » .

أما المسلمون الصحيحو الإسلام منهم ، فثبتوا منتظرين ما يحدث بعد هذه الهزيمة ، معتقدين أن هزيمة محمد ليس معناها زوال دين الله من الأرض ، فإن الله لا شك مظهره على الدين كله ، كما وعد بذلك ولو كره الكافرين . وهذا الرأى يتراءى فى رد عكرمة بن أبى جهل على من قال : والله لا يجبرونها أبدا ، فإنه قال له : « ليس هذا لك ولا بيدك ، الأمر بيد الله ، ليس إلى محمد منه شىء ، إن دِيلَ عليه اليوم (أى إن كانت الكرة عليه اليوم) ، فإن له العاقبة غدا » .

ماذا كان من أمر رسول الله حيال هذه الهزيمة ؟

انهزم جيش المسلمين ولكن النبى ﷺ ورجاله من أركان حربه وعددهم ثلاثمائة وقيل ثمانون ، وقيل بل عشرة ، لم ينهزموا ، وبقى عليه السلام على بغلته يدفعها نحو جموع الأعداء ، ويكفها عن المضى بعض أصحابه خوفا عليه من الردى . فعن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله يوم حنين فولى الناس وبقيت معه فى ثمانين رجلا ، فقمنا على أقدامنا ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السَّكِينة (كما

ورد فى الآية) ورسول الله على بغلته ، وكان العباس عمه آخذا بلجامها يكفّها أن تتقدم فى نحر العدو ، والثمانون منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والفضل بن العباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وأسامة بن زيد وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وعتبة ومعتب ابنا أبى لهب وأيمن ابن أم أيمن وغيرهم ؛ وكان النبى ﷺ وهو فى تلك الحالة ، والناس يولون الأدبار حواليه سراعا لا يلوون على شيء ، يناديهم قائلا : إلَىَّ أيها الناس ، فلم يجد سميعا . فقال لعمه العباس وكان جهورى الصوت : صح بالناس قائلا يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السَّمُرة (أى الشجرة التى كانت تحتها بيعة الرضوان) ، يا للمهاجرين الذين بايعوا النبى تحت الشجرة ، فما طرقت هذه الصيحات أذنىْ واحد منهم حتى سارع إليه قائلا : لبيك لبيك ، وسيوفهم مصلتة فى أيديهم تلمع كالشهب ، فأمر رسول الله أن يصدقوا الحملة على المشركين ، فأجابوه واندفعوا على المشركين كالسيل العرم ، وما هى إلا ساعة حتى ولى المشركون الأدبار ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، فما أمسى المساء حتى طار الخبر إلى مكة بأن النبى انتصر على أعدائه ، ففرح بذلك المؤمنون ، وحزن المشركون .

ولما كلمه بعضهم فى معاقبة الفارّين أجاب : بأن الله قد كفى وأحسن ، كما قال تعالى فى أمر هذه الوقعة : « وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ثم أمر النبى ﷺ بجمع النساء والأطفال الذين تركهم أزواجهم وآباؤهم وفروا طالبين النجاة ، والاستيلاء على ما تركه العدو من سائمته وأمواله ، وقد أحصيت فبلغت أربعة وعشرين ألف بعير ، وأكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة .

أما المشركون فتفرقوا ثلاث فرق ، لحقت إحداها بالطائف ، ولاذت الثانية بنخلة ، وعسكرت ثالثتها بأوطاس (وهو واد بديار بنى هوازن) .

كان أكبر أثر لهذا الانتصار العظيم سحق النزعة الاستقلالية الأعرابية سحقا تاما ، فإن القبائل التى كانت ضاربة فى وديان بلاد العرب وشعابها ، كانت تعتبر

نفسها مستقلة كل الاستقلال عن جاراتها ، ولذلك كانت فى خصام مستمر موروث لا تهدأ له نار ، ولا ينقطع لها أوار [١] ، فلما رأت بقية القبائل ما حل بهوازن وهى من أكبر قبائل العرب ، وأعزها مكانا ، اضطرت أن تقبل إلى النبى ﷺ مستسلمة ، قابلة أن تخضع لحكم الإسلام وما يفرضه عليها من التكاليف والتبعات ، كأعضاء أمة واحدة ، متكافلة الأجزاء ، متكاملة الأبعاض ، لتؤدى للمجموع البشرى من الخدم الاجتماعية ما يجب على كل جزء منه أداؤه ، جهادا وراء وصول الإنسانية إلى ما قدر لها من وجود كريم ، يناسب ما منحته من المواهب النفسية والعقلية .

هذه الحركة الاجتماعية التكافلية من القبائل العربية لم تحصل فى أى عهد من عهود الأمة العربية . فإن ما يرويه الراوون من مدنية بعض قبائلها كعاد وثمود وغيرها ، كانت حركات قبيلية محضة ، مقتصرة على أصحابها ، ولم تتعد سواها ، فلم تقم للاجتماع العربى شخصية أدبية عامة إلا بواسطة الإسلام الذى بُعث به محمد على فترة من الرسل ليكون دينا عاما ، ورباطا أدبيا شاملا للعالم كله .

أما الهزيمة التى ألمت بالمسلمين فى هذه الوقعة فقد علّلها الكتاب الكريم بتلك الحركة النفسية ، وهى الإعجاب بالكثرة ، عدولا منهم عن السبب الصحيح فى بناء وجودهم ، وهو التأييد الإلهى لا الأسباب العادية ، فاستحقوا على ذلك ، تجريداً لإيمانهم من شوائب الخلط بين العمل الإلهى المعجز ، والعمل الإنسانى الممكن : أن يوكلوا لأنفسهم ، فانهزموا على كثرتهم ، ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [٢] .

نعم إن الإسلام أمر بالأخذ بالوسائل العادية ، للنجح فى المطالب الحيوية ، ولكنه أراد أن ينّبه حماة الإسلام لآخر مرة ، أن هذه الوسائل العادية ليست هى السبب فى وجودهم الاجتماعى ، ولا فى نجاحهم فى إقامة الصرح الإسلامى ، فإن هذا العمل الضخم الذى لا مثيل له فى جميع أدوار التاريخ البشرى ، لا يعقل أن

---

(١) الأوار بضم الألف هو الدخان أو اللهب .

(٢) سورة الأنفال ، من الآية (٦٣) .

يتم بالوسائل العادية ، فلم تجر العادة بأن فردا واحدا يقوم فى أمة وثنية ، مزقت أوصالها الحياة القبيلية ، وتغلغلت فى أحشائها العادات الجاهلية ، فينجح فى دعوتها إلى حياة اجتماعية تكافلية عالية ، تعتبر أرفع من كل ما وصل إليه البشر ، وذلك على الرغم مما جبلت عليه من العقائد والعادات والتقاليد قرونا متوالية ويجعل منها فوق ذلك أمة مثالية ، تحمل علم المثل العليا فى كل ضرب من ضروب المقومات الأدبية والمادية للنوع الإنسانى ، ويحدث بسببها فى العالم كله حركة إصلاح لا تزال مستمرة إلى اليوم ، ولن تزال كذلك حتى يبلغ العالم الشأو الذى أعده الخالق لبلوغه .

على أن الذى يتدبر فى انتصار المسلمين فى وقعة حنين بعد تلك الهزيمة المنكرة ، يدهش كل الدهش من حدوثها على غير السنن الطبيعية . فإن تصدع جيش برمته ، مؤلف من عناصر غير متجانسة ، وإركانه إلى الفرار من وجه العدو ، حتى بلغت فالّته المدينة التى خرج منها ، وانكشاف جموعهم عن قائدهم الأعلى حتى صار ، وهو ممتط ظهر بغلة ليست من مطايا الكر والفرّ ، على مرمى سهم من العدو الذى ثمل بخمرة النصر ، وحميت نفسه على البطش بخصمه ، قلنا إن الذى يتدبر كل هذا ويقدره قدره تحت ضوء السنن الحربية ، يرى أن كَرَّةً من طائفة أو طوائف محدودة العدد ، كالتى عناها العباس فى صيحاته ، لا تكفى للتغلب على عشرات ألوف من المقاتلة ذاقوا باكورة النصر ، ووراءهم نساؤهم وأولادهم يطالبونهم بالحماية ، وكل ما يملكونه من حاجات العيش يهددهم ضياعه بفاقة ليس وراءها فاقة .

هذا كله لا يعقل إلا بتأييد إلهى ، وهو الذى عناه الكتاب بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ [1] ، هذه الجنود ملائكة أى أرواح عالية نفثت فى رُوعهم فضائل الثبات والاستبسال والتضحية . وما حدا الكتاب للتنويه بهذه الجنود إلا لما حدث من هذا الانقلاب المدهش ، فلو كان الأمر قد جرى على مقتضى السنن المعروفة ، لما كان من حاجة إلى ذكر إرسال هذه الجنود ، بل لكان ذكرها مشكّكاً للذين نزلت إليهم ، فإن ذكر الإعجاز فى مواطن الأمور الممكنة يؤدى إلى عكس

---

(١) سورة التوبة ، من الآية (٢٦) .

ما يراد منه .

وهناك أمر جدير بالنظر وهو أن النبى ﷺ كان ممتطيا صهوة بغلة ، وهى لم تسعف راكبها بالسرعة التى تقتضيها الحال إذا جد الجد فى ساحات الوغى ، وأعجب من هذا ثباته وهو فى وجه العدو ، بل محاولته الهجوم على جيش لجب لم يُمْنَ المسلمون بمثل كثرة عدده منذ عهدهم بالإسلام . هذا كله فوق قدرة البشر ، ولا يمكن تعليله إلا بثقته المطلقة فى حفظ الله له كما وعده بذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٢) . وهذا أيضا يضاف إلى أعلام نبوته وهى كثيرة تخرج عن الحصر (*) .

★ ★ ★

---

(١) سورة المائدة ، من الآية (٦٧) .

(٢) سورة غافر ، الآية (٦٧) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء السادس ، جمادى الآخرة سنة ١٣٦٢ هـ .

obeikandl.com

تعقّب فُلُول هَوَازِن وثَقيف

قلنا فى الفصل السابق إن فالّة جيش هوازن وثقيف تفرقوا ثلاث فرق : نزلت أولاها بالطائف ، وثانيتها بنخلة ، وثالثتها بأوطاس .

فأرسل النبى ﷺ إلى التى بأوطاس (سرية) تحت قيادة أبى عامر الأشعرى ليبدد شملهم فتوفى فى المعركة ، وخلفه فى القيادة أبو موسى الأشعرى ابن أخيه ، فرجع بما أصاب من الغنائم ، بعد أن تفرق الأعداء شذر مذر .

ورأى رسول الله أن يسير بنفسه لقتال بنى ثقيف ببلدتهم (الطائف) ليفضّ جمعهم هم ومن انضم إليهم من بنى هوازن . فجعل على مقدمته خالد بن الوليد . فمر عليه السلام بحصن لعوف بن مالك ، فأمر بهدمه ، وببستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه ، فأرسل إليه بأن يخرج وإلاّ أمر بإحراق البستان ، فأبى الرجل ، فأمر النبى بإحراق البستان .

ولما وصل الجيش إلى الطائف وجد المسلمون أن الأعداء قد حصنوا أنفسهم فيه ، واختزنوا معهم مقادير من الزاد تكفيهم مدة طويلة ، وما فتئوا يرمون المسلمين بسهامهم حتى أصابوا كثيراً منهم ، فأصيب محمد بن أبى بكر بسهم لم يزل يطاوله حتى قضى عليه فى خلافة أبيه ، وأصيب أبو سفيان بن حرب بسهم فى عينه ففقأها . ومات اثنا عشر من المسلمين متأثرين بجروحهم .

فلما رأى رسول الله أن أصحابه على مرمى السهام من أعدائهم ، انتقل إلى موقف يحتمون فيه من شرهم ، وبقى محاصرا لهم ثمانية عشر يوما ، كان خالد بن الوليد فى أثنائها يدعوهم إلى المبارزة فلا ينزل إليه أحد ، وناداه عبد يا ليل رئيسهم قائلا : « لن ينزل إليك منا أحد ، وسنقيم بحصننا حتى ينفد ما معنا من الزاد ، وهو يكفينا سنين عدة ، فإن لبثت حتى ينفد زادنا خرجنا إليك جميعا ، وقاتلناك حتى نموت عن آخرنا » .

فأمر رسول الله بأن ينقب عليهم الحصن بواسطة دبابتين ، والدبابة عندهم كانت عربة مغطاة يقف تحتها الجنود ليحتموا من النبل ، ويعملوا على نقب سور

الحصن ، وعزز ذلك بالمنجنيق ليقذفهم بالحجارة ، وهى أداة كانت تقوم مقام المدفع اليوم ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فلم يقو المسلمون على الثبات أمامها لنقب الحصن .

فرأى رسول الله أن يعمد إلى قطع نخلهم وأعنابهم ، فمضى المسلمون فى قطعها ، فناداه أهل الحصن قائلين : دَعْها لله وللرحم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أَدَعُها لله وللرحم » .

ثم أمر مناديا أن ينادى : كل من ترك الحصن ونزل فهو آمن . فخرج إليه بضعة عشر رجلا .

فلما آنس النبى أن أمرهم شديد المراس ، استشار أحد أصحابه ، نوفل بن معاوية ، فى أمرهم ، فقال : « يا رسول الله ثعلب فى جحر إن أقمت أخذته ، وإن تركته لم يضرك » . فأمر عليه السلام برفع الحصار عنهم والعودة إلى مكة .

وقبل أن يصل إليها اتصل به عروة بن مسعود الثقفى فى الطريق وأسلم على يده ، وانتدب أن يرجع إلى قومه ويدعوهم إلى الإسلام . فقال له رسول الله ﷺ : إنهم قاتلوك ، فقال يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم ، وانطلق . فلما أتى الطائف وأبدى لهم ما جاء به رموه بالنبل فقتلوه . وبعد شهر من مقتله أدركوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من الأعراب الذين دخلوا فى طاعة النبى ﷺ ، فأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا له رجلا من أعيانهم يكلمه فى شأنهم . فوقع اختيارهم على رئيسهم عبد يا ليل بن عمرو أن يقوم بهذه السفارة . فأبى أن يذهب إلى النبى وحده ، وطلب أن يكون معه رجال منهم ، فبعثوا معه خمسة من أشرافهم . فخرجوا متوجهين إلى المدينة . ولما لاقوا رسول الله أمر فضربت لهم قبة فى ناحية المسجد ليسمعوا القرآن ، ويروا الناس وهم يصلون ويتعبدون . وكانوا يغدون إلى المسجد كل يوم ، ويتركون فى رحالهم واحدا منهم كان أصغرهم سنا يدعى عثمان بن أبى العاص ، وكان شابا نجيبا ، فكان إذا عادوا إلى رحالهم ، ذهب هو إلى النبى وطلب إليه أن يقرئه القرآن ، فإذا اتفق أن وجده نائما ، عمد إلى أبى بكر فطلب إليه ذلك ، حتى حفظ شيئا كثيرا منه ، وتعلم مبادئ الدين ، وكان يكتم ذلك عن صحبه .

بعد ما تم لهؤلاء الرجال معرفة ما عليه المسلمون من سمو العقيدة ، وروعة العبادة ، وبعد أن تأثروا بآيات الكتاب البينة ، ووضحت لهم محجة الإسلام القيمة ، أسلموا وطلبوا أن يعين لهم النبى ﷺ من يأتمون به ، فاختار لهم عثمان ابن أبى العاص الذى مر ذكره لما رآه فيه من حب الإسلام ، وإخلاصه له ، ليحفّظهم ما هم فى حاجة إليه من آيات القرآن ، ويعلموا ما يجب أن يعلموه من تكاليف الإسلام .

تقسيم الغنائم على المقاتلين :

قلنا إن المسلمين غنموا فى هذه الغزوة عددا كبيرا من الأنعام والماشية ، ومقادير عظيمة من الفضة ، فرجع النبى ﷺ بعد فراغه من المعركة إلى الجعرانة حيث ترك هذه المغانم ليوزعها على المحاربة ، فقسمها إلى خمسة مقادير وأخذ واحدا لبيت المال ، كما هى القاعدة فى توزيع الغنائم الحربية ، وأعطى الأربعة الأخماس الباقية للمحاربين ، ولم يعط الأنصار وهم أهل يثرب شيئا منها . فأصاب الراجل أربعة من الإبل وأربعون شاة ، وأصاب الراكب ثلاثة أمثال ذلك . فقال رجل ، ولعله كان منافقا وقد كانوا كثيرين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فغضب رسول الله حتى احمر وجهه . فاستأذنه عمر وخالد بن الوليد أن يضربا عنقه . فقال : لا ، لعله أن يكون يصلى . فقال خالد : كم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . فقال النبى : إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ، ولا أن أشق عن بطونهم .

وزاد النبى فى أعطيات بعض الناس ، فأعطى لكل من أبى سفيان وولديه يزيد ومعاوية أربعين أوقية من الذهب ومائة من الإبل .

وأعطى حكيم بن حزام من سادة قريش ، مثل ما أعطى أبا سفيان . فاستزاده حكيم . فأعطاه النبى مثلها . فاستزاده ثانية ، فأعطاه مثلها أيضا . ثم قال له : « يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس ، بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى » . فأخذ حكيم النصيب الأول وترك ما عداه ، ثم قال : « والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا » . فكان الخلفاء

بعد النبى ﷺ يعطونه ما يخصه سنويا من بيت المال ، فكان يرده .

وأعطى رسول الله لكل من الأقرع بن حابس والعباس بن مرداس مائة من الإبل .

وأعطى صفوان بن أمية ، ولم يكن قد أسلم بعد ، شعبا مملوءا نعما وشاء كان رآه يرمقه . قال له : هل يعجبك هذا ؟ قال نعم . فقال النبى ﷺ هو لك . فقال صفوان : ما طابت بمثل هذا نفس أحد ؛ ولم يسعه إلا أن أسلم .

كل هذا كان من باب السياسة الشرعية ، فقد شرع الله أن يعطى من المال لغير المسلمين تألفا لهم . وقد أثمرت هذه السياسة . فأصبح الذين أجزل لهم النبى ﷺ العطاء من أجلاء المسلمين .

ولما شرع رسول الله فى قسمة ما بقى من الغنيمة اكتظ حوله الأعراب ، وصاروا يزحمونه حتى ألجأوه إلى شجرة ، فتعلق رداؤه بغصن من أغصانها فقال : « أيها الناس رُدُّوا علىَّ ردائى فو الله إن كان لى عدد شجر تهامة نَعَماً لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذوبا » ، ثم عمد إلى بعيره وأخذ وبرة من سنامه وقال : « أيها الناس والله مالى من غنيمتكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخِيَاط والمِخْيَط فإنّ الغُلُول (أى الاختلاس من الغنيمة) يكون على أهله عارا وشنارا وناراً يوم القيامة ، فصار كل من أخذ شيئا من المغانم خلسة يرده ولو كان تافها .

ولما أعطى النبى هذه العطايا للناس وترك كبار المهاجرين والأنصار ، غضب بعض هؤلاء ، فجمعهم وقال لهم : « إن قريشا حديثو عهد بكفر ، وإنى أردت أن أتألفهم ، أفتغضبون يا معشر الأنصار لشىء قليل من الدنيا ألفت به قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت ؟ ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا ، لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » . فبكى القوم حتى أخضلت لحاهم ، وقالوا : « رضينا برسول الله قسما وحظا » .

ثمرات هذه السياسة الحكيمة :

قلنا فيما سلف إن العرب قسمان : قسم يسكن المدن وقسم يسكن البوادى ، وقد أطلقوا على الأولين كلمة (عرب) وعلى الآخرين كلمة (أعراب) . سكان المدن عادة يكونون على شىء من النظام والمدنية ، وعلى جانب من القابلية للحياة الاجتماعية ، مهما كان جنسهم مغموسا فى حمأة الجاهلية . دليل ذلك أن النبى ﷺ لما استعصمت عليه قريش ، وعرض الإسلام على القبائل المتبدية ، لم يجد واحدة منها تقبل مناصرته ، وقبل أهل يثرب الاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة ، ويثرب كانت مدينة ، فالنبى ﷺ بما آتاه الله من حكمة النبوة ، وبعد النظر ، أدرك هذه الحقيقة فحرص أن ينضم إلى دعوته أهل المدينتين مكة ويثرب ، والإسلام دين أساسه حياة اجتماعية ، وخضوع لأصول أدبية ، وقوانين نظامية ، وأين هذا كله من أقوام حياتهم ساذجة ، يعيشون فى الخيام ، وينزحون بها عندما ينبو بهم المقام فى بقعة من الأرض ، إلى بقعة أخرى ، بما معهم من النعم والماشية ، لا يبالون أين تقر عصاهم من نواحى بلادهم المترامية الأطراف ؛ وقد نزل القرآن مؤيدا لهذا النظر الصحيح ، فقال تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ، وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا (أى يعتبر ما ينفقه فى سبيل إقامة الإسلام غرامة عليه) وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ (أى يتربص أن يفسد أمركم وتذهب دولتكم ليخلص من تكاليفكم) ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

وقد ظهر مصداق ذلك كله بعد وفاة النبى ﷺ ، فإن أكثر القبائل ارتدت عن الإسلام ، وعادت إلى جاهليتها ، واستعدت لقتال كل من يتصدى لها ، وبقى أهل المدينتين ثابتين على إسلامهم ، فقاموا على قلة عددهم برد تلك القبائل إلى الإسلام بالقوة ، ونجحوا فى ذلك بتأييد من الله ، إبقاء على هذا الدين من التلاشى ، وقد أعده الله لإحداث أكبر الانتقالات العمرانية فى العالم ، كما وعد أهله بذلك فى

---

(١) سورة التوبة ، الآيتان (٩٧ ، ٩٨) .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (أى من الدول الكبرى ذات الآثار الخالدة فى الأرض) ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ؛ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) .

إذا تقرر هذا فإن ما فعله النبى ﷺ من تألف كفار قريش بالمال ، وحرما أنصاره الأولين منه يعتبر من أكيس ما يفعله صاحب دعوة فى العالم يعرف كيف يجمع القلوب على تأييدها .

* * *

لا يبدون إلى ذهن بعض القراء أن المجتمع الإسلامى قام على تصيد الأنصار بالمال أو بالإرهاب أو بغيرهما من الوسائل المادية التى تستهوى النفوس ، وتستولى على الأهواء ، فإن نظرة عجلى على ما حدث فى هذه الوقعة ينفى ذلك نفيا بدليل محسوس . ذلك أن النبى ﷺ أعطى الأموال التى غنمها إلى الذين كانوا لا يزالون مشركين ، والذين أسلموا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وحرم منه أنصاره ومؤيديه الذين حصل له هذا المال باستماتتهم فى نصرته ، وتعرضهم لأفدح الأهوال فى تأييد دعوته . فلو كان أمر المجتمع الإسلامى قائما على هذه الأعراض الزائلة لكفى هذا العمل فى حل جماعته ، أو على القليل لحدثت فتنة تعرض وجودهم للخطر . وقد شوهد أنه لم يحدث شيء من ذلك .

على أن من يرجع للتعاقد الذى حدث بين رسول الله والذين انتدبوا لحماية دعوته من أهل يثرب ، يرى أنهم لم يعطَوا مقابلا لجهادهم غير ثواب الآخرة . فإنهم لما اجتمعوا فى الهزيع الأخير من الليل فى بعض شعاب مكة ، وعرض عليهم النبى ما يطلب منهم أن يبذلوه من التضحيات فى سبيل الإسلام ، سألوه : ومالنا على ذلك يا رسول الله : فقال لهم : الجنة . فأجابوه رضينا بذلك وانصرفوا .

---

(١) سورة النور ، الآية (٥٥) .

باعتقالهم فى دارِرملة بنت الحارث .

وفود تميم على رسول الله ﷺ :-

ما كاد هؤلاء الأسرى يصلون إلى المدينة ، حتى جاء على أثرهم وفد من بنى تميم على رأسه عطارد بن حاجب والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، من أشرافهم ، فجلسوا ينتظرون خروج رسول الله إليهم ، فلما أبطأ عليهم نادوا من وراء حجراته التى كان يقيم فيها : « يا محمد اخرج إلينا نفاخرك ، فإن مدحنا زين ، وإن ذمنا شين » فخرج إليهم الرسول وقد تأذى من صياحهم ، وكان الوقت ظهرا ، فأذّن بلال ، واتجه النبى إلى المحراب ليصلى بالناس ، فتعلق رجال الوفد به وهم يقولون : « نحن رجال من بنى تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك » . فقال لهم رسول الله : « ما بالشعر بعثنا ، ولا بالفخار أمرنا » ثم مضى وصلى الظهر وهم ينظرون .

فلما أتم ﷺ اجتمع إليه رجال ذلك الوفد وأخذوا يتمدحون بمفاخرهم ، ومناقب آبائهم . وتكلم عمرو بن الأهتم فمدح الزبرقان بن بدر ، فقال فيه : « إنه لمطاع فى أنديته ، سيد فى عشيرته » .

فقال الزبرقان : « لقد حسدنى ابن الأهتم لشرفى ، وهو يعلم منى أفضل مما قال » .

فالتفت عمرو بن الأهتم إلى رسول الله وقال : (إنه لَزمِن المروءة ، ضيقَ العَطَن [1] ، لئيم الخيال) ، فرؤى الغضب فى وجه رسول الله لتلون عمرو بن الأهتم فى قوله . فقال عمرو بن الأهتم : « لقد صدقت فى الأولى ، وما كذبت فى الثانية ؛ رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أسوأ ما علمت » . فأعجب رسول الله بتخلصه من تناقضه وقال : « إن من البيان لسحرا » .

---

(١) الزمانة العاهة : يقال فلان زمن المروءة ، أو زمن الرغبة أى ضعيفها . والعَطَن مناخ الإبل والغنم وفلان ضيق العطن أى فقير .

ثم انتهى الأمر بإسلام القوم ، فرد رسول الله عليهم أسراهم ، وأحسن عائدتهم . ثم مكثوا بالمدينة مدة يتعلمون فيها القرآن ، ويتفقهون فى أمور الدين ، ليعلموا قومهم متى عادوا إليهم .

إن الذى يتأمل فى عقلية هؤلاء القوم يدرك الصعوبة البالغة التى تحول دون نشر دعوة دينية فى أمثالهم . إن غرضهم من مجيئهم كان تحرير أسرى أُخذوا منهم بحرب ، فأين هذا من طلب المفاخرة والمنافرة من الغالب ؛ فما أسرع ما يلمس المتأمل فى هذا وأمثاله مكان الإعجاز فى عمل النبى ﷺ فى بلاد كانت تغص بأشباههم .

إن جاهلية هؤلاء القوم التى حملتهم على استعجال رسول الله لينزل إليهم بالصياح المزعج من وراء حجراته قائلين : يا محمد انزل إلينا نفاخرك إلخ ، نزل قرآن فى استهجانه ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ، لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [1] ، فسلب من أكثرهم العقل ، أليس فى اتهام زميل بالحسد فى ظرف كالذى كانوا فيه ما يؤيد معنى هذه الآية .

السرية الثالثة :-

بعث النبى ﷺ الوليد بن عقبة بن أبى معيط لتحصيل زكاة بنى المصطلق ، فلما علم القوم بقدومه خرج منهم عشرون رجلا متقلدين أسلحتهم حفاوة منهم باستقبال وفد رسول الله ﷺ ، ومعهم الإبل التى أخرجوها للزكاة . فلما وقعت عين الوليد بن عقبة عليهم ، ظنهم يريدون قتاله ، وقد كان بينه وبينهم عداء فى الجاهلية ، فأسرع بالعود إلى المدينة ، وأخبر رسول الله بأنهم ارتدوا عن الإسلام ومنعوه الزكاة ، واقبلوا لمحاربته .

فاضطر النبى ﷺ أن يقابلهم بالمثل بعد التثبت من حالهم ، فندب لذلك

---

(١) سورة الحجرات ، الآيتان (٤ ، ٥) .

وقد نزل فى ذلك قرآن فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [1] ، فهو لم يشتر منهم أنفسهم فحسب ، بل وأموالهم أيضا مقابل أن يتفضل الله عليهم بالجنة .

من هنا يتبين أن هذا الدين قام على أثبت ما يقوم عليه بناء مجتمع ، وهو الإيمان مجردا عن المطامع الدنيوية ، وهذا سر بقائه إلى اليوم أيضا [*] .

★ ★ ★

(١) سورة التوبة ، من الآية (١١١) .

(★) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء السابع ، رجب سنة ١٣٦٢ هـ .

obeikandl.com

علامات تصدّع الوثنية فى البلاد العربية
خمس سريّات ووَفْدان

بعد أن أتم رسول الله ﷺ حرب بنى هوازن وأُوتى ما ذكرناه فى العددين الماضيين من النصر الحاسم عليهم ، وقد قلنا إن تلك المعركة كانت فاصلة بين الإسلام والوثنية فى جزيرة العرب ، عاد رسول الله من معسكره بالجعرانة إلى مكة ، ثم إلى المدينة بعد أن لبث فيها ثلاث عشرة ليلة ، وكان ذلك لثلاث بقين من ذى القعدة .

أما علامات التصدع فى صرح الوثنية فقد يبدو جليا للرائى من أخبار السرايا والوفود فى هذه الفترة من الوقت بين السنة الثامنة والحادية عشرة ، وهى السنة التى انتقل فيها رسول الله إلى الملأ الأعلى .

السرية الأولى :-

لما عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة ندب قيس بن سعد على رأس أربعمائة مقاتل لدعوة بنى صداء إلى الإسلام وهى قبيلة كانت تسكن اليمن . وما كادت تستعد هذه السرية للمسير حتى أقبل رجل من صداء وقابل رسول الله وقال له : يا رسول الله إنى جئتك موفدا ممن ورائى من قومى ، فارْدد الجيش وأنا لك بقومى . فأمر رسول الله بردّ الجيش . وشخص الرجل إلى قومه ، ثم أقبل ومعه خمسة عشرة رجلا منهم ، فنزلوا ضيوفا على سعد بن عبادة ، ثم قابلوا النبى ﷺ وبايعوا على الإسلام ، وقالوا له نحن لك على من وراءنا من قومنا ، ولما رجعوا فشا فيهم الإسلام ، وأقبل منهم مائة رجل فى حجة الوداع .

السرية الثانية :-

ثم أرسل رسول الله ﷺ بشر بن سفيان العدوى إلى بنى كعب بن خزاعة لتحصيل زكاة أموالهم ، فمنعهم بنو تميم المجاورون لهم من أداء مهمتهم ، فأرسل إليهم النبى ﷺ عينية بن حصن على رأس خمسين فارسا ، فجاءهم وقاتلهم ، واقتاد منهم أحد عشر رجلا وعشرين امرأة وثلاثين صبيا ، وأقبل بهم إلى المدينة ، فأمر النبى

خالد بن الوليد فى عدد من الجند ، فسار حتى إذا كان بمحلتهم سمع مؤذنهم يؤذن الصبح ، فأقبل عليهم ، فلم ير منهم ما يؤاخذون عليه من كفر أو عصيان ، فعاد وأخبر رسول الله بما رأى ، فأرسل إليهم رجلا فى نفر فحصل منهم زكاة أموالهم دون أن يحدث شيء من الشغب .

السرية الرابعة :-

نمى إلى رسول الله ﷺ أن رهطاً من الحُبْشان يحومون حول جدة على سفن يريدون الإغارة عليها ونهبها ، فأرسل إليهم علقمة بن مجزّز فى ثلاثمائة من الجنود . فلما وصل إلى جدة اقتحم البحر على سفن وقصد إلى جزيرة كان الأحباش متحصنين بها هنالك ، فلما رأوا المسلمين مقبلين إليهم فروا . فعاد علقمة بمن معه من الجنود ، وبينما هم بالطريق أراد جماعة أن يتعجلوا الوصول إلى المدينة ، فأمَّر عليهم علقمة ابن مجزز واحدا منهم اسمه عبد الله بن حذافة السهمى ، وكان يحب المداعبة ، فأمر رجاله فى بعض الطريق أن يشعلوا نارا عظيمة ، ففعلوا ، ثم التفت إليهم وقال : أليس عليكم أن تطيعونى فى كل ما آمركم به بوصفى أميرا عليكم اليوم ؟ قالوا نعم . قال فإنى آمركم أن تلقوا بأنفسكم فى هذه النار . فتعجبوا وحدث بينهم ما يحدث حيال أمر شنيع كهذا ، فأغرق رئيسهم فى الضحك وقال لهم لا بأس عليكم ، إنى كنت مازحا . فلما أُخبر بذلك رسول الله استنكره ، ونطق بهذا الأصل الاجتماعى العظيم وهو قوله : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

السرية الخامسة :-

فى شهر ربيع الأول من السنة التاسعة أرسل النبى ﷺ على بن أبى طالب فى خمسين فارسا لهدم صنم بنى طَيِّء ، فسار إليه وحطمه ثم أحرقه ، ولكن رجالا من بنى طيء لم يستطيعوا تحمل هذه الإهانة فانتدبوا لقتال سرية رسول الله ، ولكنهم انهزموا فاستاق المسلمون شاءهم ونعمهم ، وعددا من نسائهم منهم سفانة بنت حاتم الطائى المشهور .

فلما رجعت السرية إلى المدينة طلبت سفانة من رسول الله أن يمن عليها بالحرية ، فأجابها إلى ما طلبت وأكرمها ، قيل وكانت هذه المعاملة سببا فى إسلام

أخيها عدىّ بن حاتم ، وكان قد فر إلى الشام بدينه ، لأن كان قد تنصّر قبل البعثة المحمدية . ذلك أن أخته توجهت إليه بالشام وأخبرته بما حظيت به من إكرام النبى لها . فسألها عن رأيها فيما يفعل ، فقالت له : أرى أن تلحق بمحمد ، فإن كان نبيا كان لك فضل السبق ، وإن كان ملكا فأنت أنت . فعمل بإشارتها .

وفود عدى بن حاتم الطائى على رسول الله :

وقد عدى بن حاتم على النبى ﷺ ، فأخذه إلى داره ، وبينما هما يمشيان ، استوقفت امرأة رسول الله ، فوقف لها طويلا وهى تكلمه فى حاجة لها ، فأعجب عدى فى نفسه لهذا التواضع وقال ما هو بملك .

ثم مضى رسول الله حتى إذا دخل داره تناول وسادة من جلد محشوة ليفا ، فقدمها إلى عدى وقال له إجلس عليها ، فقال بل أنت تجلس عليها ، فامتنع رسول الله وردها إلى عدى وجلس هو على الأرض . ثم قال يا عدى أَسْلِمْ تسلم . فقال عدى إنى على دين ، فقال له النبى : أنا أعلم بدينك منك . فقال عدى : أأنت أعلم بدينى منى؟ فقال له النبى نعم ، وعدد له أشياء كان يفعلها مجاراة لجاهلية العرب وليست من النصرانية فى شىء ، كأَخْذِه المِرْباع وهو ربع الغنائم .

ثم قال كما رواه أصحاب السير : يا عدى إنما يمنعك من الدخول فى الإسلام ما ترى : تقول إنما اتبعه ضعاف الناس ، ومن لا قدرة لهم ، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم ، فو الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم . أتعرف الحِيرَة ؟ قال عدى : لم أرها وقد سمعت بها . قال النبى ﷺ : فو الله ليتمن هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد . ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل وقد فتحت عليهم .

فأسلم عدىّ بن حاتم وعاش حتى رأى كل ذلك .

نقول وما قاله النبى ﷺ كله من اتساع ملك المسلمين ، وتضخم دولتهم ، موجود بالمعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (١) .

نزلت هذه الآية لما قال بعض المسلمين : ترى هل يؤمننا الله على أنفسنا حتى يصلى أحدنا لا يخاف أن يراه أحد فيبطش به ؟ وقد كان أحدهم إذا صلى خشى أن يراه أحد فيقصده بسوء . وهذا الوعد من أعلام النبوة ، فإن التنبؤ بأن هذه الفئة القليلة ستكون لها دولة فى الأرض تؤهلها أن تكون لها الخلافة فيها كما كان للفرس والرومان ، وتحقُّق ذلك يعتبر من أكبر المعجزات المثبتة حسيًّا بحيث لا يمكن أن ينكرها إنسان (*) .

★ ★ ★

(١) سورة النور ، الآية (٥٥) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الثامن ، شعبان سنة ١٣٦٢ هـ .

obeikandl.com

المسلمون يزحفون لغزو الرومانيين فى بلادهم

من محارات العقول فى الأحداث الاجتماعية أن دولة لا تربى سنها على العشرين سنة ، تزحف لملاقاة أكبر امبراطورية قامت فى الأرض ، لتردعها عن فكرة الغزو التى كانت تطوف بخيالهم لجماعتها فى بلادهم .

إن مجرد خطور فكرة من هذا القبيل لمجتمع صغير ، وخاصة وهو فى الحالة التى كان عليها المسلمون فى ذلك الظرف من الزمن ، كان يعتبر من موجبات الدهش والذهول .

دولة تستطيع أن تقذف فى حومة الوغى بمئات الألوف من المقاتلة المغاوير ، مسلحين أكمل تسليح ، ووراءهم مدد لا ينضب من الرجال والعتاد ، تتقصدها فى عقر دارها قبصة [١] من الرجال ليس لهم من الوسائل الحربية ما يساوى شيئا يذكر بجانب ما لخصومهم ، فضلا عن المزية التى لعدوهم ، وهى أنه يقاتل قريبا من موارد تموينه وتسليحه ، وهم على مسافة شاسعة من بلادهم ، تقطعها المهارى واليَعْمَلات [٢] فى أيام طويلة ، لعمرى إن مجرد التفكير فى غزوة من هذا القبيل تعتبر من البطولة ، فما ظنك بالخفوف إلى تنفيذها ، والزحف إلى بلاد العدو لتحقيقها ؟

كان هذا مثيرا لعجب المنافقين ودهشهم ، حتى أن زعيمهم بالمدينة ، عبد الله بن أُبَىّ ، نسب إليه أنه قال : « يغزو محمد بنى الأصفر (يريد الرومانيين) مع جهد الحال والحر ، والبلد البعيد ! يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال » !

* * *

نورد الآن تاريخ غزوة تبوك ، وهى التى وُجهت ضد الرومانيين ، فنقول :

---

(١) ملء الكف كالقبضة بالضاد .

(٢) اليعملات جمع يعملة ، بفتح الياء والميم : هى الناقة النجيبة المطبوعة على العمل .

نُمى إلى رسول الله ﷺ أن الروم يهمون بغزوه فى بلاده ، وكانت الحالة العامة فى ذلك الوقت لا تسمح بالحرب ، فكان القيظ شديدا ، والإعسار المالى منيخا بكلا كله على الناس ، وقد آذنت الأشجار بأن تؤتى أكلها ، وأحب ما إلى القلوب فى مثل هذه الحالة أن يجنى الناس ثمارهم ، ويتمتعوا بالسعة بعد ذلك الضيق ؛ ففوجىء المسلمون وهم على ما نذكر بالنفير العام .

وأرسل النبى ﷺ إلى أهل مكة والأعراب ، وهم سكان البادية ، يستنفرهم للحرب .

ولما كانت الحالة المالية لا تسمح بتجهيز حملة حربية ، حث رسول الله الأغنياء لبذل المعونة ، فبذل عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار ، وثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، وخمسين جوادا . وتنازل أبو بكر عن ماله كله ، وهو أربعة آلاف درهم . وأعطى عمر نصف ماله ، وعبد الرحمن بن عوف مائة أوقية ، وعاصم بن عدى سبعين وسقا من التمر . وأرسلت كثير من النساء بحليهن . وعبىء الجيش فبلغ عدده ثلاثين ألفا ، وتخلف كثير من المنافقين معتذرين بأعذار واهية ، فكان النبى يقبل عذرهم ، فلامه الله على ذلك فى قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ (أى بالتخلف) ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١) . ثم قال تعالى فى حقهم : ﴿ إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ (٢) . ثم بين أن عدم خروجهم كان خيرا للمسلمين فقال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ، وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ، وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

لما تمت تعبئة الجيش عيّن النبى ﷺ أبا بكر قائدا عاما له وسلمه لواءه الأعظم ، وعين الزبير بن العوام قائدا للمهاجرين ، وأسيد بن حضير قائدا للأوس ،

---

(١) سورة التوبة ، الآية (٤٣) .
(٢) سورة التوبة ، الآية (٤٥) .
(٣) سورة التوبة ، الآية (٤٧) .

والحباب بن المنذر قائدا للخزرج (وهما القبيلتان المؤلفتان لأهل المدينة) .

لما وصل رسول الله إلى تبوك لم يجد للرومان جيشا ، وتبين له أن ما كان قد بلغه لم يكن صحيحا ، فأقام بتبوك أياما جاءه فى خلالها يوحنا صاحب أيْلة ، ومعه أهل قرية جَرْباء ، وهى تقع جنوب الشام ، وأهل إذْرُح وهى مدينة تلقاء السّراة ؛ فصالح يوحنا على إعطاء الجزية وكتب له كتابا هذه عبارته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمَنة من الله ومحمد النبى رسول الله ، ليوحنا وأهل أيلة ، سفنهم وسيّارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحوز ماله دون نفسه ، وإنه لطيبة لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر » .

وكتب لأهل إذرح وجرباء ما صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبى لأهل إذرح وجرباء أنهم آمنوا بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين » .

وصالح أهل ميثاء على ربع ثمارهم .

ثم استشار النبى ﷺ أصحابه فى مجاوزة تبوك لمقابلة جيش الرومان حيث يجدونه .

فقال له عمر : « يا رسول الله إن كنت أمرت بالسير فَسِرْ » .

فقال عليه الصلاة والسلام : « لو كنت أمرت لم أستشر » .

فقال عمر : « يا رسول الله إن للروم جموعا كثيرة ، وليس فى الشام أحد من أهل الإسلام ، وقد دنونا وأفزعهم دنوّك ، فلو رجعنا فى هذه السنة حتى نرى ، أو يحدث الله أمرا » .

فتبع النبى مشورته وأمر بالرجوع إلى المدينة ، ولما كان على مقربة منها أبلغه

بعضهم أن جماعة من المنافقين أسسوا مسجدا فيها إزاء مسجدها الذى أسسه النبى نفسه ، طلبا لتفريق كلمة المسلمين ، وتذرعا لإحداث الشقاق فى صفوفهم المتراصة . وجاءه جماعة من مؤسسيه يطلبون إليه أن يصلى فيه . فسألهم النبى عن الأمر الذى حملهم على بنائه ؟ فحلفوا بالله ما أرادوا بذلك إلا الحسنى . فلم يقبل النبى منهم ذلك ، وأمر بعض جنوده بهدمه ، ففعلوا . وقد سمى المسلمون هذا المسجد بمسجد الضِّرار ، أى الضرر .

إبلاغ المشركين انتهاء مدة عهدهم :

وفى أواخر شهر ذى القعدة أرسل النبى ﷺ أبا بكر أميرا على الحجاج فخرج معهم ، وبينما هو فى الطريق لحق به على بن أبى طالب مبعوثا برسالة من رسول الله ليبلغها للناس ، وهى آيات من أوائل سورة براءة ، وكانت نزلت بعد سفر الصدّيق . فلما اجتمع الحجيج بمنى قرأ عليهم علىّ تلك الآيات من أول سورة براءة مؤداها :

بطلان العهود التى قطعت للمشركين و لم يوفوا بها ، وإمْهالُهم بعد ذلك أربعة أشهر ليسيروا خلالها فى الأرض لا يتعرض لهم أحد ، فإن أسلموا فى أثنائها عدوا من زمرة المؤمنين ، وإن أصروا على كفرهم بعد مضيها سرى عليهم حكم المشركين ؛ وبأن يوفى العهد للمشركين الذين لم ينضموا إلى أعداء المسلمين فى حروبهم لهم ، و لم يغدروا بهم ، وذلك بأن تكمل لهم مدد عهودهم ؛ وأنه لا يسمح بعد ذلك العام لمشرك بحج البيت ؛ وزيد على مؤدى الآيات بأن لا يسمح بأن يطوف بالبيت عريان . وهذا نص الآيات :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ . فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ ، وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ . وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ، أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً ، فَأَتِمُّوا إِلَيْهِم عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ

الْمُتَّقِينَ . فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ، وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ ، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ . كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ ، إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ، يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ . اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ، إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ، فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ . أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ، وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ ، وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَآءُ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

السنة العاشرة الهجرية :

أول ما حدث فى هذه السنة أن أرسل النبى ﷺ خالد بن الوليد فى جنود ليذهب إلى بنى عبد المدان بنجران فى اليمن ، وكلفه أن يدعوهم للإسلام ثلاث مرات ، فإن أبوا قاتلهم . ففعل وأسلموا . فأقام عندهم يعلمهم الإسلام ويحفظهم القرآن بأمر رسول الله ، ثم أمر عليهم ﷺ زيد بن حصين .

سرية ثانية :

وفى رمضان من تلك السنة أرسل النبى ﷺ على بن أبى طالب فى جنود إلى بنى مَذْحِج (قبيلة يمنية) ، وقال له : « سر حتى تنزل بساحتهم ، فادعهم إلى

---

(١) سورة التوبة ، الآيات (١ – ١٥) .

قول لا إله إلا الله ، فإن قالوا نعم فمرهم بالصلاة ، ولا تبغ منهم غير ذلك . ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس ، ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك » .

فلما وصل علىّ إليهم دعاهم إلى التوحيد فلم يقبلوه ، وقابلوا المسلمين بالنبل ، فأمر علىٌّ جنوده بالزحف عليهم ، فلما هزموهم لم يأمرهم بتعقبهم ، ثم لحق بهم بعد قليل ودعاهم إلى الإسلام ، فأجابوه وبايعه رؤساؤهم قائلين : نحن على من وراءنا من قومنا ، وهذه زكاة أموالنا فخذها ، ففعل ، وعاد بما أخذه إلى رسول الله ﷺ .

إرسال الولاة إلى اليمن :

وفى هذه السنة بعث رسول الله بولاة من قبله على اليمن ، فعين معاذ بن جبل على الكُورة العليا [1] من جهة عدن ، وندب أبا موسى الأشعرى فى الكورة السفلى ، ووصاهما بقوله : « يسِّرا ولا تعسِّرا ، وبشِّرا ولا تنفِّرا » [*] .

★ ★ ★

(١) الكورة هى البقعة من الأرض يكون فيها مدن وقرى .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء التاسع ، رمضان سنة ١٣٦٢ هـ .